تفسير سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ، ولم يستثنوا منها شيئا ، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء . وقد روى مثل هذا عن ابن عباس . أخرجه النحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : سورة الأنفال نزلت بالمدينة. وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير . وأخرجه ابن مردويه أيضا عن زيد بن ثابت . وأخرج سعيد بن منصور والبخارى وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى بدر . وفى لفظ : تلك سورة بدر (١) .

قال القرطبى : قال ابن عباس : هى مدنية إلا سبع آيات من قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ... ﴾ إلى آخر سبع آيات ، وجملة آيات هذه السورة ست وسبعون آية . وقد كان النبى ﷺ يقرأ بها فى صلاة المغرب كما أخرجه الطبرانى بسند صحيح عن أبى أيوب (٢) . وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت عن النبى ﷺ أنه كان يقرأ فى الركعتين من المغرب بسورة الأنفال (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١)** ﴾

الأنفال : جمع نَفَل محركاً ، وهو الغنيمة ، ومنه قول عنترة :

إنا إذا احمر الوغى نروى القنا ونعف عند تقاسم الأنفال (٤)

أى الغنائم . وأصل النفل : الزيادة . وسميت الغنيمة به ؛ لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرهم . أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد. ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين ، والابتغاء ، ونبت معروف . والنافلة : التطوع لكونها زائدة على الواجب (٥) . والنافلة : ولد الولد ؛ لأنه زيادة على الولد (٦) .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٤٥) .

(٢) الطبرانى (٣٨٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ :« رجاله رجال الصحيح » .

(٣) الطبرانى (٤٨٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٢١ : « ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) البيت يوجد فى ديوانه من قصيدته المعنونة (من مثل قومى) والتى بدأها بقوله :

عفت الديار وباقى الأطلال ريح الصبا وتقلب الأحوال

وقد جاء فى المخطوطة : « مقاسم » : والصحيح : « تقاسم »كى يستقيم المعنى .

(٥) النافلة : ما زاد على النصيب أو الحق أو الفرض يقال : هو يصلى النافلة وفى التنزيل العزيز: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [الإسراء : ٧٩].

(٦) ومنه قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ [الأنبياء : ٧٢].

وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة رضى الله عنهم فى يوم بدر كما سيأتى بيانه ، فنزع الله ما غنموه من أيديهم ، وجعله لله والرسول ، فقال : ﴿ **قل الأنفال لله والرسول** ﴾ أى حكمها مختص بهما ، يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه ، وليس لكم حكم فى ذلك . وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة ، ليس لأحد فيها شىء حتى نزل قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه** ﴾ وثم أمرهم بالتقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما ، وترك الاختلاف الذى وقع بينهم ، ثم قال : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى امتثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله . وفيه من التهييج والإلهاب ما لا يخفى ، مع كونهم فى تلك الحال على الإيمان ، فكأنه قال : إن كنتم مستمرين على الإيمان بالله ؛ لأن هذه الأمور الثلاثة التى هى : تقوى الله، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول ، لا يكمل الإيمان بدونها ، بل لا يثبت أصلا لمن لم يمتثلها ، فإن من ليس بمتق ، وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن.

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى الرسول ﷺ ، فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء . يقول : عن سواء . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عبادة بن الصامت ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا . فالتقى الناس فهزم الله العدو . فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنه العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾ قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار فى أرض العدو ، نفل الربع ، وإذا أقبل راجعًا وكل الناس نفل الثلث . وكان يكره الأنفال ويقول : ليرد قوى المسلمين على ضعيفهم(١) .

وأخرج إسحاق بن راهويه فى مسنده ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى

---

(١) أحمد ٥/ ٣٢٣ ، ٣٢٤ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٩ : « ورجاله ثقات » وابن جرير ٩/ ١١٦ وصححه الحاكم ٢/ ١٣٥ ، ١٣٦ : « على شرط مسلم » ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٢٩٢ .

قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فنصرها الله وفتح عليها ، فكان من أتاه بشىء نفله من الخمس ، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلون ويأسرون ، وتركوا الغنائم خلفهم ، فلم ينالوا من الغنائم شيئاً ، فقالوا : يا رسول الله ، ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون ، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنيمة ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ونزل : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ... ﴾ الآية . فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : « ردوا ما أخذتم ، واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يأمركم بذلك » فقالوا : قد أنفقنا وأكلنا ، فقال : « احتسبوا ذلك » (١) .

وأخرج أحمد وأبو داود ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن سعد ابن أبى وقاص ، قال : قلت : يا رسول الله ، قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف. فقال : « إن هذا السيف لا لك ولا لى . ضعه » . فوضعته ، ثم رجعت قلت : عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى ، إذا رجل يدعونى من ورائى . قلت : قد أنزل الله فىَّ شيئًا ؟ قال : «كنت سألتنى هذا السيف وليس هو لى، وإنه قد وهب لى فهو لك». وأنزل الله هذه الآية : ﴿ **يسألونك على الأنفال** ﴾ (٢) ، وفى لفظ لأحمد أن سعداً قال: لما قتل أخى يوم بدر ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة (٣) ، فأتيت به رسول الله ﷺ ثم ذكر نحو ما تقدم (٤) . وقد روى هذا الحديث عن سعد من وجوه أخر.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ أن الناس سألوا رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ (٥) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : لم ينفل النبى ﷺ بعد إذ نزلت عليه : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ إلا من الخمس ، فإنه نفل يوم خيبر من الخمس . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والنسائى ، وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ، قال : لما كان يوم بدر ، قال النبى ﷺ : « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا » . فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإنا كنا لكم رِدْءاً . ولو كان منكم شىء

---

(١) عزاه فى المطالب العالية (٣٦٢٨) لإسحاق ، ونقل المحقق عن البوصيرى أنه قال : « رواه إسحاق بسند ضعيف لضعف واصل بن السائب » .

(٢) أحمد ١/ ١٧٨ وأبو داود فى الجهاد (٢٧٤٠) والترمذى فى التفسير (٣٠٧٩) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢١٦) وابن جرير ٩/ ١١٧ وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ٣١٢ وصححه الحاكم ٢/ ١٣٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٢٩١ .

(٣) فى المطبوعة : « الكنيفة » بالنون ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة بالتاء .

(٤) أحمد ١/ ١٨٠ . (٥) ابن جرير ٩/ ١١٨ .

للجأتم إلينا . فاختصموا إلى النبى ﷺ فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ... ﴾ الآية ، فقسم النبى ﷺ الغنائم بينهم بالسوية (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : الأنفال : المغانم . كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شىء ما أصاب من سرايا المسلمين من شىء أتوه به . فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئا فأنزل الله: ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال** ﴾ لى جعلتها لرسولى ليس لكم فيها شىء . ﴿ **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ ، ثم أنزل الله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ الآية [الأنفال: ٤١] ، ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولذى القربى ، واليتامى، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله ، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء ، للفرس سهمان. ولصاحبه سهم ، وللراجل سهم (٢). وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : هى الغنائم ، ثم نسخها : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء** ﴾ الآية .

وأخرج مالك وابن أبى شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل . فأعاد المسألة فقال ابن عباس : هذا مثل صبيغ (٣) الذى ضربه عمر . وفى لفظ : فقال : ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ العراقى . وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه (٤) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: الأنفال : المغانم . أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها ، فيرد القوى على الضعيف. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس ، وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : هو ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال ، من عبد أو دابة أو متاع ، فذلك للنبى ﷺ يصنع به ما شاء (٥) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال : أرسلنا إلى سعيد

---

(١) أبو داود فى الجهاد (٢٧٣٧ ، ٢٧٣٨) والنسائى فى التفسير (٢١٧) وابن جرير ٩/ ١١٦ وابن حبان (٥٠٧١) والحاكم ٢/ ١٣٢ وقال : «هذا حديث صحيح فقد احتج البخارى بعكرمة ، وقد احتج مسلم بداود بن أبى هند ولم يخرجاه » وقال الذهبى : « هو على شرط البخارى » ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ١٣٦ .

(٢) ابن جرير ٩/ ١١٨ والبيهقى ٦/ ٢٩٣ .

(٣) فى المخطوطة : « ضبيع » ، بالضاد المعجمة فى أوله والعين المهملة فى آخره ، والصواب بالصاد المهملة والغين المعجمة على وزن « فعيل » واسمه: صَبِيغ بن عِسْل .

(٤) مالك فى الجهاد ٢/ ٤٥٥ وابن أبى شيبة (١٥١٣٤) وابن جرير ٩/ ١١٥ وقال ابن كثير ٣/ ٢٧٤ : « إسناده صحيح إلى ابن عباس ، أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل » .

(٥) ابن جرير ٩/ ١١٤ .

ابن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألونى عن الأنفال ،وإنه لا نفل بعد رسول الله ﷺ[١] . وأخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضاً قال : ما كانوا ينفلون إلا من الخمس . وروى عبد الرزاق عنه أنه قال : لا نفل فى غنائم المسلمين إلا فى خمس الخمس . وأخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه ، فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الشعبى فى قوله: ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ قال : ما أصابت السرايا [٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير ، والنحاس فى ناسخه عن مجاهد وعكرمة ، قال : كانت الأنفال لله والرسول حتى نسختها آية الخمس : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ الآية [الأنفال : ٤١] [٣].

وأخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ قال : هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله ، وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا فى الأنفال . وأخرج ابن أبى حاتم عن مكحول قال : كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم ، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ وبين من قاتل وغنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ قال : طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة .

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾** ﴾ .

الوجل : الخوف والفزع . والمراد أن حصول الخوف من الله ، والفزع منه عند ذكره هو من شأن المؤمنين الكاملى الإيمان ، المخلصين لله . فالحصر باعتبار كمال الإيمان ، لا باعتبار أصل الإيمان .

قال جماعة من المفسرين : هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم ، ولا يخفاك أن هذا وإن صح إدراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله ، يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول . ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال ، ولا بوقت دون وقت ، ولا بواقعة دون واقعة .

والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة ، أو التعبير عن بديع صنعته ، وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع ، وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون . قيل : والمراد

(١) ابن جرير ٩/ ١١٩ .
(٢) ابن أبى شيبة (١٥١٣٥) .
(٣) ابن جرير ٩/ ١١٨ .

بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات . وقيل : المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل ؛ لأن الإيمان شىء واحد لا يزيد ولا ينقص [١] . والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه .

﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ لا على غيره . والتوكل على الله : تفويض الأمر إليه فى جميع الأمور . والموصول فى قوله : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾ فى محل رفع ، على أنه وصف للموصول الذى قبله ، أو بدل منه أو بيان له ، أو فى محل نصب على المدح . وخص إقامة الصلاة والصدقة ؛ لكونهما أصل الخير وأساسه . و« من » فى ﴿ **مما** ﴾ للتبعيض.

والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **هم المؤمنون** ﴾ أى إن هؤلاء هم الكاملون الإيمان ، البالغون فيه إلى أعلى درجاته ، وأقصى غاياته . و﴿ **حقاً** ﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة: ﴿**هم المؤمنون** ﴾ أى حق ذلك حقا ، أو صفة مصدر محذوف ، أى هم المؤمنون إيماناً حقًا . ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعًا بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال : ﴿ **لهم درجات** ﴾ أى منازل خير وكرامة وشرف فى الجنة ، كائنة عند ربهم. وفى كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم ، وتعظيم وتفخيم . وجملة : ﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ خبر ثان لـ ﴿ **أولئك** ﴾ أو مستأنفة جواباً لسؤال مقدر . ﴿ **ومغفرة** ﴾ معطوف على درجات ، أى مغفرة لذنوبهم . ﴿**ورزق كريم** ﴾ يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وجلت قلوبهم** ﴾ قال : فرقَّتْ قلوبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى الآية قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ فأدوا فرائضه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت: إنما الوجل فى القلب كاحتراق السعفة [٢] يا شهر بن حوشب ، أما تجد قشعريرة ؟ قلت : بلى . قالت : فادع عندها ، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك .

وأخرج الحكيم الترمذى عن ثابت البنانى ، قال : قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين لك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى . وأخرج أيضا عن عائشة قالت : ما الوجل فى قلب المؤمن إلا كضرمة [٣]

---

(١) مسألة زيادة الإيمان ونقصانه اختلفت حولها الفرق ، والصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة أنه يزيد وينقص. راجع : فتاوى ابن تيمية ، والعقيدة الطحاوية وغيرهما .

(٢) السعفه ــ بفتحتين ــ : ورق جريد النخل إذا يبس .

(٣) الضرمة : الجمرة ، والنار ، والسعفة فى طرفها نار .

السعفة ، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له : اتق الله . فييجل قلبه .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **زادتهم إيمانًا** ﴾ قال: تصديقا . وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ **زادتهم إيمانا** ﴾ قال : خشية . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ يقول : لا يرجون غيره .

وأخرجا عنه فى قوله : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقًا** ﴾ قال : برئوا من الكفر . وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿**حقاً** ﴾ قال : خالصاً . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله :﴿ **لهم درجات** ﴾ يعنى : فضائل ورحمة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لهم درجات** ﴾ قال : أعمال رفيعة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **لهم درجات** ﴾ قال : أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه . ولا يرى الذى هو أسفل أنه فضل عليه أحد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **ومغفرة** ﴾ قال : بترك الذنوب . ﴿ **ورزق كريم** ﴾ قال : الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى ، قال : إذا سمعتم الله يقول : ﴿ **وزرق كريم** ﴾ فهى الجنة .

﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)** ﴾ .

قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ، أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، أى مثل إخراج ربك . والمعنى : امض لأمرك فى الغنائم . ونفل من شئت ، وإن كرهوا؛ لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً . قال : بقى أكثر الناس بغير شىء . فموضع الكاف نصب كما ذكرنا . وبه قال الفراء . وقال أبو عبيدة : هو قسم ، أى والذى أخرجك . فالكاف بمعنى الواو. و« ما » بمعنى الذى . وقال الأخفش سعيد ابن مسعدة : المعنى : أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك . وقال عكرمة : المعنى : أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك .

وقيل : ﴿ **كما أخرجك** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **لهم درجات** ﴾ أى هذا الوعد للمؤمنين حق فى الآخرة . ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ الواجب له،فأنجز وعدك وظفرك بعدوّك ، وأوفى لك . ذكره النحاس واختاره . وقيل: الكاف فى ﴿ **كما** ﴾ كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده : كما وجهتك إلى أعدائى فاستضعفوك وسألت مددًا فأمددتك وقويتك ، وأزحت علتك ، فخذهم الآن فعاقبهم . وقيل : إن الكاف فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم فى كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم فى كراهة خروجهم للحرب ، ذكره صاحب الكشاف [1] .

و﴿ **بالحق** ﴾ متعلق بمحذوف ، والتقدير : إخراجاً متلبساً بالحق الذى لا شبهة فيه . وجملة : ﴿ **وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كما أخرجك فى حال كراهتهم لذلك ؛ لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين إما العير أو النفير ، رغبوا فى العير لما فيها من الغنيمة ، والسلامة من القتال ، كما سيأتى بيانه.

وجملة : ﴿ **يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ إما فى محل نصب على أنها حال بعد حال، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر . ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين ، وفات العير، وأمرهم بقتال النفير ، ولم يكن معهم كثير أهبة ، لذلك شق عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة ، وأكملنا الأهبة . ومعنى : ﴿ **فى الحق** ﴾ أى فى القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشىء إلا بإذن الله ، أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين . وأن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير . و﴿ **بعد** ﴾ ظرف ليجادلونك . و﴿ **ما** ﴾ مصدرية ، أى يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم .

قوله : ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ الكاف فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ **لكارهون** ﴾ أى حال كونهم فى شدة فزعهم من القتال ، يشبهون حال من يساق ليقتل ، وهو مشاهد لأسباب قتله ناظر إليها لا يشك فيها .

قوله : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أى واذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين . وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث بقصد المبالغة . والطائفتان هما : العير والنفير.و﴿ **إحدى** ﴾ هو ثانى مفعولى ﴿ **يعد** ﴾ و﴿ **أنها لكم** ﴾ بدل منه بدل اشتمال.ومعناه: أنها مسخرة لكم، وأنكم تغلبونها وتغنمون منها ، وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة ، لا يطيقون لكم دفعاً ، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضراً ولا نفعاً . وفى هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التى أنعم الله بها عليهم .

---

(١) الكشاف ٢/ ١٩٧ .

قـوله : ﴿ **وتودون** ﴾ معطوف على ﴿ **يعدكم** ﴾ من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها. ﴿ **أن غير ذات الشوكة** ﴾ من الطائفتين،وهى طائفة العير ﴿ **تكون لكم** ﴾ دون ذات الشوكة ، وهى طائفة النفير ، أى غير ذات الحد. والشوكة : السلاح . والشوكة : النبت الذى له حد . ومنه رجل شائك السلاح ، أى حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكى السلاح . فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك . والمعنى : وتودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ، وهى طائفة العير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال ، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها .

قوله : ﴿ **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته** ﴾ معطوف على ﴿ **تودون** ﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته ، أى ويريد الله غير ما تريدون ، وهو أن يحق الحق بظاهره ، لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة ، وقتلهم لصناديدهم وأسر كثير منهم ، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التى أجلبوا بها عليكم ، ورامـوا دفعكم بها . والمراد بالكلمات : الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوكة ، ووعدكم منه بالظفر بها . ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ الدابر : الآخر . وقطعه عبارة عن الاستئصال ، والمعنى : ويستأصلهم جميعاً .

قوله : ﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل** ﴾ هذه الجملة علة لما يريده الله ، أى أراد ذلك ، أو يريد ذلك ليظهر الحق ويرفعه ﴿ **ويبطل الباطل** ﴾ ويضعه ، أو اللام متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليحق الحق.وقيل : متعلق بـ﴿ **يقطع** ﴾ وليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها ؛ لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإرادتين . وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك، والعلة المقتضية له . والمصلحة المترتبة عليه . وإحقاق الحق : إظهاره . وإبطال الباطل : إعدامه . ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ [الأنبياء : ١٨] ومفـعول ﴿ **ولو كره المجرمون** ﴾ محذوف،أى ولو كرهوا أن يحق الحق ، ويبطل الباطل . والمجرمون هم المشركون من قريش ، أو جميع طوائف الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال لنا رسول الله ﷺ ، ونحن بالمدينة ، وبلغه أن عير أبى سفيان قد أقبلت فقال : « ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا»، فخرجنا ، فلما سرنا يومًا أو يومين ، أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعاد ، ففعلنا . فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فأخبرنا النبى ﷺ بعدتنا ، فسر بذلك وحمد الله وقال : « عدة أصحاب طالوت » . فقال : « ما ترون فى قتال القوم ، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم » . فقلنا : يا رسول الله ، لا والله مالنا طاقة بقتال القوم ، إنما خرجنا للعير ، ثم قال : « ما ترون في قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد : لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا

قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] فأنزل الله : ﴿ **كما أخرجك ربك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾ . فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين إما القوم ، وإما العير ، طابت أنفسنا . ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا ، فقال رسول الله ﷺ :« اللهم إنى أنشدك وعدك». فقال ابن رواحة : يا رسول الله ، إنى أريد أن أشير عليك ، ورسول الله ﷺ أفضل من أن يشير عليه : إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده . فقال : « يا بن رواحة ، لأنشدن الله وعده ، فإن الله لا يخلف الميعاد » . فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها رسول الله ﷺ فى وجوه القوم فانهزموا . فأنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ فقتلنا وأسرنا ، فقال عمر : يا رسول الله ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن داعون مؤلفون ، فقلنا : يا معشر الأنصار، إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا.فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال: «ادعوا لى عمر». فدعى له ، فقال : « إن الله قد أنزل علىَّ : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى﴾ » الآية [الأنفال : ٦٧]. وفى إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف (١).

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، بلغنا أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبى بكر . ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تريد ، فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ، ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن ، لنسيرن معك ،ولا نكونن كالذين قالوا لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ إلى قوله : ﴿**ويقطع دابر الكافرين** ﴾ وإنما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبى سفيان ، فأحدث الله إليه القتال .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال : كذلك يجادلونك فى خروج القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال : السدى فى قوله :﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ قال : خروج

(١) الطبرانى (٤٠٥٦) وقال الهيثمى فى المجمع : ٦/ ٧٦ « إسناده حسن » وقال محقق الطبرانى :« قلت ليس بحسن لأن فى إسناده ابن لهيعة ، والراوى عنه من غير العبادلة » .

النبى ﷺ إلى بدر ﴿ **وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ قال : لطلب المشركين . ﴿**يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ إنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ قال: هى عير أبى سفيان . ودَّ أصحاب محمد ﷺ أن العير كانت لهم ، وأن القتال صرف عنهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة : ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ أى شأفتهم. ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث ، والسير ، والتاريخ مستوفاة ، فلا نطيل بذكرها .

﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)** ﴾

قوله : ﴿ **إذ تستغيثون** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى واذكروا وقت استغاثتكم .وقيل : بدل من : ﴿ **وإذ يعدكم الله** ﴾ معمول لعامله . وقيل : متعلق بقوله : ﴿ **ليحق الحق** ﴾ والاستغاثة طلب الغوث . يقال : استغاثنى فلان فأغثته . والاسم : الغياث . والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لابد من قتال الطائفة ذات الشوكة ، وهم النفير كما أمرهم الله بذلك ، وأراده منهم ، ورأوا كثرة عدد النفير ، وقلة عددهم ، استغاثوا بالله سبحانه . وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف ، وعدد المسلمين ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، وأن النبى ﷺ لما رأى ذلك ، استقبل القبلة ، ثم مَدَّ يَدَيْهِ فجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آتنى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » [1] الحديث ﴿ **فاستجاب لكم** ﴾ عطف على ﴿ **تستغيثون** ﴾ داخل معه فى التذكير ، وهو وإن كان مستقبلا فهو بمعنى الماضى . ولهذا عطف عليه ﴿ **استجاب** ﴾ .

قوله : ﴿ **أنى ممدكم بألف من الملائكة** ﴾ أى بأنى ممدكم فحذف حرف الجر ، وأوصل الفعل إلى المفعول . وقرئ بكسر الهمزة على إرادة القول ، أو على أن فى ﴿ **استجاب** ﴾ معنى القول .

قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول . وقرأ الباقون بكسرها اسم فاعل . وانتصابه على الحال . والمعنى على القراءة الأولى : أنه جعل بعضهم تابعاً لبعض . وعلى القراءة الثانية : أنهم جعلوا بعضهم تابعًا لبعض . وقيل: إن ﴿ **مردفين** ﴾ على القراءتين نعت

(١) مسلم فى الجهاد (٥٨/١٧٦٣) .

لألف . وقيل : إنه على القراءة الأولى حال من الضمير المنصوب فى ﴿ **ممدكم** ﴾ أى ممدكم فى حال إردافكم بألف من الملائكة . وقد قيل : إن ردف وأردف بمعنى واحد . وأنكره أبو عبيدة قال: لقوله تعالى: ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ [النازعات:٧] ولم يقل المردفة . قال سيبويه : وفى الآية قراءة ثالثة وهى: « مردفين » بضم الراء وكسر الدال مشددة ، وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال ، وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدرى :« بآلاف » جمع ألف ، وهو الموافق لما تقدم فى آل عمران .

والضمير فى ﴿ **وما جعله الله** ﴾ راجع إلى الإمداد المدلول عليه بقوله : ﴿ **أنى ممدكم** ﴾. ﴿ **إلا بشرى** ﴾ أى إلا بشارة لكم بنصره ، وهو استثناء مفرغ ، أى ما جعل إمدادكم لشىء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر . ﴿ **ولتطمئن به**﴾ أى بالإمداد قلوبكم . وفى هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا ، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ، وتطمين قلوبهم، وتثبيتها . واللام فى ﴿ **لتطمئن** ﴾ متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخراً ، أى ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشىء آخر . ﴿**وما النصر إلا من عند الله** ﴾ لا من عند غيره ، ليس للملائكة فى ذلك أثر ، فهو الناصر على الحقيقة،وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التى سببها الله لكم ، وأمدكم بها. ﴿ **إن الله عزيز**﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى كل أفعاله .

وقد أخرج ابن جرير عن على رضى الله عنه قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ ، وأنا فى الميسرة . وأخرج سنيد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ما أمد النبى ﷺ بأكثر من هذه الألف التى ذكر الله فى الأنفال ، وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف إلا بشرى .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قال: متتابعين . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ يقول : المدد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضًا فى الآية قال : وراء كل ملك ملك . وأخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف ، وهم مدد المسلمين فى ثغورهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبوالشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **مردفين** ﴾ قال : مجدين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: متتابعين ، أمدهم الله بألف ، ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف. ﴿ **وما جعله الله إلا بشرى** ﴾ لكم ﴿ **ولتطمئن به قلوبكم** ﴾ قال: يعنى نزول الملائكة . قال : وذكر لنا أن عمر قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا . وأما بعد ذلك فالله أعلم. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ **مردفين** ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **إذ يغشيكم** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر كالذى قبله ، أو بدل ثان من ﴿ **إذ يعدكم** ﴾ أو منصوب بالنصر المذكور قبله . وقيل غير ذلك مما لا وجه له . و﴿ **يغشيكم** ﴾ هى قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه. وهذه القراءة هى المطابقة لما قبلها . أعنى قوله : ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾ ولما بعدها أعنى : ﴿ **وينزل عليكم** ﴾ فيتشاكل الكلام ويتناسب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « يغشاكم » على أن الفاعل للنعاس . وقرأ الباقون: ﴿**يغشيكم** ﴾ بفتح الغين وتشديد الشين ، وهى كقراءة نافع وأهل المدينة فى إسناد الفعل إلى الله، ونصب النعاس . قال مكى : والاختيار ضم الياء والتشديد ، ونصب النعاس لأن بعده ﴿ **أمنة منه**﴾ . والهاء فى ﴿ **منه** ﴾ لله ، فهو الذى يغشيهم النعاس ، ولأن الأكثر عليه ، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب ﴿ **أمنة** ﴾ على أنها مفعول له . ولا يحتاج فى ذلك إلى تأويل وتكلف ؛ لأن فاعل الفعل المعلل والعلة واحد ، بخلاف انتصابها على العلة باعتبار القراءة الثانية ، فإنه يحتاج إلى تكلف.وأما على جعل الأمنة مصدراً فلا إشكال . يقال : أمن أمنة وأمنا وأماناً . وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم ، وهى أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه ، سكن الله قلوبهم وأمَّنها حتى ناموا آمنين غير خائفين ، وكان هذا النوم فى الليلة التى كان القتال فى غدها . قيل : وفى استنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : أحدهما : أنه قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد . الثانى : أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم . وقيل : إن النوم غشيهم فى حال التقاء الصفين . وقد مضى فى يوم أحد نحو من هذا فى سورة آل عمران .

قوله : ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به** ﴾ هذا المطر كان بعد النعاس . وقيل : قبل النعاس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر ، فنزلوا عليه ، وبقى المؤمنون لا ماء لهم ، فأنزل الله المطر ليلة بدر. والذى فى سيرة ابن إسحاق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر ، وأنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم ، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شد لهم دهس (١) الوادى ، وأعانهم على المسير (٢) .

(١) الدهس : المكان السهل اللين ليس برمل ولا تراب ولا طين ، والأرض لا يغلب عليها لون الأرض ، ولا لون النبات . اللسان ٦/ ٨٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

ومعنى ﴿ **ليطهركم به** ﴾ : ليرفع عنكم الأحداث ﴿ **ويذهب عنكم رجز الشيطان** ﴾ أى وسوسته لكم ، بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التى هى منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت . ﴿**وليربط على قلوبكم** ﴾ فيجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب . والضمير فى ﴿ **به** ﴾ من قوله : ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ راجع إلى الماء الذى أنزله الله ، أى يثبت بهذا الماء الذى أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم فى مواطن القتال . وقيل : الضمير راجع إلى الرابط المدلول عليه بالفعل .

قوله : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم** ﴾ الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبى ﷺ ؛ لأنه لا يقف على ذلك سواه ، أى واذكر يا محمد وقت إيحاء ربك إلى الملائكة . وقيل : هو بدل من ﴿ **إذ يعدكم** ﴾ كما تقدم . ولكنه يأبى ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون ، فلا يكون من جملة النعم التى عددها الله عليهم . وقيل : العامل فيه يثبت ، فيكون المعنى يثبت الأقدام وقت الوحى ، وليس لهذا التقييد معنى . وقيل : العامل فيه ﴿ **ليربط** ﴾ ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيحاء . ومعنى الآية : إنى معكم بالنصر والمعونة . فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿**يوحى**﴾ وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول . ومعنى ﴿ **فثبتوا الذين آمنوا** ﴾ : بشروهم بالنصر ، أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم ، وتكثير سوادهم . وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم . والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

قوله : ﴿ **سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ قد تقدم بيان معنى إلقاء الرعب فى آل عمران . قيل : هذه الجملة تفسير لقوله : ﴿ **إنى معكم** ﴾ . قوله : ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ قيل : المراد : الأعناق أنفسها . و﴿ **فوق** ﴾ زائدة . قاله الأخفش وغيره . وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ؛ لأن ﴿ **فوق** ﴾ يفيد معنى ، فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنه أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها . وقيل : المراد بما فوق الأعناق ؛ الرؤوس . وقيل : المراد بفوق الأعناق أعاليها ؛ لأنها المفاصل الذى يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع . قيل : وهذا أمر للملائكة . وقيل : للمؤمنين . وعلى الأول قيل : هو تفسير لقوله : ﴿ **فثبتوا الذين آمنوا** ﴾ .

قوله : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال الزجاج : واحد البنان : بنانة . وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء ، والبنان مشتق من قولهم : أبن الرجل بالمكان . إذا أقام به ؛ لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين ، والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب . فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال ، بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وقد كان فى الهيجاء يحمى ذمارها ... ويضرب عند الكرب كل بنان

وقال عنترة أيضا :

وإن الموت طوع يدى إذا ما ... وصلت بنانها بالهندوانى

قال ابن فارس : البنان : الأصابع . ويقال : الأطراف ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل ، ودخل فى قلوبهم من الرعب ، وهو مبتدأ . و﴿ **بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ خبره ، أى ذلك بسبب مشاقتهم . والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين فى شق . وقد تقدم تحقيق ذلك . ﴿ **ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب** ﴾ له ، يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق .

قوله : ﴿ **ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من العقاب ، أو الخطاب هنا للكافرين ، كما أن الخطاب فى قوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ للنبى ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب. قال الزجاج : ذلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة . أى الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه. قال : ويجوز أن يضمر واعلموا . قال فى الكشاف : ويجوز أن يكون نصباً على عليكم ذلكم فذوقوه ، كقولك : زيداً فاضرب به. قال أبو حيان : لا يجوز تقدير : عليكم لأنه اسم فعل ، وأسماء الأفعال لا تضمر ، وتشبيهه بـ : زيدا فاضربه غير صحيح ؛ لأنه لم يقدر فيه عليك ، بل هو من باب الاشتغال . وجملة : ﴿**وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذى أصيبوا به ، ويكون ﴿ **وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ إشارة إلى العقاب الآجل .

وقد أخرج أبو يعلى والبيهقى فى الدلائل عن على قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح [(١)] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية ، قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت فى المؤمنين يوم بدر فيما أغشاهم الله من النعاس أمنة منه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أمنة منه** ﴾ قال : أمنا من الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **أمنة منه** ﴾ قال : رحمة منه أمنة من العدو . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : النعاس فى الرأس ، والنوم فى القلب. وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال : كان النعاس أمنة من الله ، وكان النعاس نعاسين : نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به** ﴾ قال : طش [(٢)] كان يوم بدر . وأخرج هؤلاء عن مجاهد فى الآية ، قال: المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار ، والتبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، وثبتت به أقدامهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء ، وكان الوادى دهسًا ، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ، ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : إن المشركين

(١) البيهقى فى الدلائل ٣/ ٣٩ .

(٢) الطش : المطر القليل وهو فوق الرذاذ . اللسان ٦/ ٣١١.

غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء ، فضحى المسلمون وصلوا مجنبين محدثين ، فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن ، وقال : أتزعمون أن فيكم نبيًا وأنكم أولياء الله ، وتصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء ، فشرب المسلمون وتطهروا، وثبتت أقدامهم ، وذهبت وسوسته [١] . وقد قدمنا أن المشهور فى كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء ، بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء . وهذا المروى عن ابن عباس فى إسناده العوفى ، وهو ضعيف جداً.

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **رجز الشيطان** ﴾ قال : وسوسته . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **وليربط على قلوبكم** ﴾ قال: بالصبر ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ قال: كان بطن الوادى دهاسًا ، فلما مطروا اشتدت الرملة. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ قال : حتى تشتد على الرمل ، وهو كهيئة الأرض . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن على قال : كان رسول الله ﷺ يصلى تلك الليلة ويقول :« اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد » ، وأصابهم تلك الليلة مطر شديد ، فذلك قوله : ﴿ **ويثبت به الأقدام** ﴾ [٢] .

وأخرج ابن أبى شيبة عن مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : قال لى أبى : يا بنى ، لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ يقول : الرؤوس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطية ﴿**فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ قال : اضربوا الأعناق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿**فاضربوا فوق الأعناق**﴾ يقول: اضربوا الرقاب.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال : يعنى بالبنان الأطراف . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطية ﴿**واضربوا منهم كل بنان** ﴾ قال : كل مفصل .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)**

(١) ابن جرير ٩/ ١٣١ .
(٢) ابن جرير ٩/ ١٣٠ .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)

الزحف : الدنو قليلا قليلا . وأصله الاندفاع على الألية . ثم سمى كل ماش فى الحرب إلى آخر زاحفاً . والتزاحف : التدانى والتقارب . تقول : زحف إلى العدو زحفا ، وازدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض ، وانتصاب ﴿ **زحفا** ﴾ إما على أنه مصدر لفعل محذوف، أى تزحفون زحفا ، أو على أنه من المؤمنين ، أى حال كونكم زاحفين إلى الكفار ، أو حال من الذين كفروا ، أى حال كون الكفار زاحفين إليكم، أو حال من الفريقين، أى متزاحفين .

﴿ **فلا تولوهم الأدبار** ﴾ نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم ، وقد دب بعضهم إلى بعض للقتال ، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن ، وعلى كل حال إلا حالة التحرف والتحيز . وقد روى عن عمر وابن عمر[1] وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد وأبى نضرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك ؛ أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية مختص بيوم بدر . وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين ؛ إذ لم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا لهم فئة إلا النبى ﷺ . فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض . وبه قال أبو حنيفة . قالوا : ويؤيده قوله : ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره** ﴾ فإنه إشارة إلى يوم بدر . وقيل : إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف . وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة ، وأن الفرار من الزحف محرم ، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب فى يوم بدر .

وأجيب عن قول الأولين : بأن الإشارة فى ﴿ **يومئذ** ﴾ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، بل هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط ما بينه الله فى آية الضعف . ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن فى الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها ، فقد كان فى المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبى ﷺ بالخروج لأنه ﷺ ومن خرج معه لم يكونوا يرون فى الابتداء أنه سيكون قتال . ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما فى حديث : « اجتنبوا السبع الموبقات» . وفيه : « والتولى يوم الزحف »[2] . ونحوه من الأحاديث . وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه ، وهو مبين فى مواطنه . قال ابن عطية :

---

(١) وحديث ابن عمرحديث حسن تفرد به النسائى فى التفسير (٢٢٠) وقال ابن جرير ٩/ ١٣٥ : « وأولى التأويلين فى هذه الآية بالصواب عندى قول من قال حكمها محكم ، وأنها نزلت فى أهل بدر وحكمها ثابت فى جميع المؤمنين ، وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف لقتال أو لتحيز إلى فئة » .

(٢) الحديث عن أبى هريرة أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٧٦٦) وفى الطب (٥٧٦٤) وفى الحدود (٦٨٥٧) ومسلم فى الإيمان (٨٩/ ١٤٥) وأبو داود فى الوصايا (٢٨٧٤) والنسائى فى الكبرى فى الوصايا (٣٦٧١) وفى التفسير (٣٨١) .

والأدبار : جمع دبر . والعبارة بالدبر فى هذه الآية متمكنة فى الفصاحة لما فى ذلك من الشناعة على الفارّ والذم له .

قوله : ﴿ **إلا متحرفا لقتال** ﴾ التحرف : الزوال عن جهة الاستواء ، والمراد به هنا : التحرف من جانب إلى جانب فى المعركة طلبا لمكائد الحرب وخدعا للعدو ، وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه ويتمكن منه ، ونحو ذلك من مكائد الحرب، فإن الحرب خدعة.

قوله : ﴿ **أو متحيزا إلى فئة** ﴾ أى إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو . وانتصاب ﴿**متحرفا**﴾ و﴿**متحيزا** ﴾ على الاستثناء من المولين ، أى ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا . ويجوز انتصابهما على الحال ، ويكون حرف الاستثناء لغوا لا عمل له . وجملة : ﴿ **فقد باء بغضب من الله** ﴾ جزاء للشرط ، والمعنى : من ينهزم ويفر من الزحف فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المتحرف والمتحيز . ﴿ **ومأواه جهنم** ﴾ أى المكان الذى يأوى إليه هو النار . ففراره أوقعه إلى ما هو أشد بلاء مما فر منه وأعظم عقوبة . والمأوى: ما يأوى إليه الإنسان . ﴿ **وبئس المصير** ﴾ ما صار إليه من عذاب النار . وقد اشتملت هذه الآية على الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف،وفى ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة .

قوله : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قـتلهم** ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، أى إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة ، وإيقاع الرعب فى قلوبهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر .

قوله: ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ اختلف المفسرون فى هذا الرمى على أقوال : فروى عن مالك أن المراد به : ما كان منه ﷺ فى يوم حنين ، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادى ، فأصابت كل واحد منهم . وقيل : المراد به : الرمية التى رمى رسول الله ﷺ أُبى بن خلف بالحربة فى عنقه فانهزم ومات منها . وقيل : المراد به السهم الذى رمى به رسول الله ﷺ فى حصن خيبر ، فسار فى الهوى حتى أصاب ابن أبى الحقيق وهو على فراشه .

وهذه الأقوال ضعيفة ، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر . وأيضا المشهور فى كتب السير والحديث فى قتل ابن أبى الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة . والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره أن المراد بالرمي المذكور فى هذه الآية: هو ما كان منه ﷺ فى يوم بدر ، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين ، فأصابت كل واحد منهم ودخلت فى عينيه ومنخريه وأنفه (١) .

قال ثعلب : المعنى : ﴿ **وما رميت** ﴾ الفزع والرعب فى قلوبهم ﴿ **إذ رميت** ﴾ بالحصباء فانهزموا . ﴿**ولكن الله رمى** ﴾ أى أعانك وأظفرك ، والعرب تقول : رمى الله لك ، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة فى كتاب المجاز . وقال محمد بن

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣١٠ ، ٣١١ .

يزيد المبرد : المعنى : ﴿ **وما رميت** ﴾ بقوتك ﴿ **إذ رميت** ﴾ ولكنك بقوة الله رميت .

وقيل: المعنى: إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ؛ لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ ؛ لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه ؛ لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلا . هكذا فى الكشاف [١] .

قوله : ﴿ **وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا** ﴾ البلاء هاهنا : النعمة . والمعنى : ولينعم على المؤمنين إنعاما جميلا . واللام متعلقة بمحذوف ، أى وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره . أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها ، أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا . ﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ لدعائهم ، عليم بأحوالهم . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى البلاء الحسن ، وهو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى الغرض ﴿ **ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين** ﴾ أى إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين . وقيل : المشار إليه القتل والرمى . وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين ، وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة ، والكيد : المكر ، وقد تقدم بيانه .

وقد أخرج البخارى فى تاريخه ، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع ؛ أنه سأل ابن عمر قال : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندرى من الفئة أمامنا أو عسكرنا ؟ فقال لى: الفئة رسول الله ﷺ ،فقلت: إن الله يقول: ﴿ **إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولولهم الأدبار** ﴾ قال: إنما نزلت هذه الآية فى أهل بدر ،لا قبلها ولا بعدها [٢] .وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره ...** ﴾ الآية ، قال: إنها كانت لأهل بدر خاصة [٣] .وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال: لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر ، وأنا فئة لكل مسلم [٤] .وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى أهل

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٠٧ .

(٢) النسائى فى التفسير (٢٢٠) وإسناده حسن ورجاله ثقات غير حسان بن عبد الله بن سهل الكندى المصرى فهو صدوق يخطئ .

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٦٤٨) والنسائى فى التفسير (٢٢٣ ،٢٢٤) وابن جرير ٩/ ١٣٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٢٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وابن الجوزى فى نواسخ القرآن ص ٣٤٥، وسنده صحيح ورجاله كلهم ثقات .

(٤) ابن جرير ٩/ ١٣٥ .

بدر خاصة ، ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه . وقد روى اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إلا متحرفا لقتال** ﴾ يعنى مستطردا يريد الكرة على المشركين . ﴿ **أو متحيزا إلى فئة** ﴾ يعنى أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة ﴿ **فقد باء بغضب من الله**﴾ يقول : استوجبوا سخطا من الله ﴿ **ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ فهذا يوم بدر خاصة ، كان شديدا على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين ، وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك، قال : المتحرف : المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها . والمتحيز : الفار إلى رسول الله ﷺ ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره** ﴾ قال: هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال: ﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾[1] الآية [الأنفال: ٦٦].

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب المفرد واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر قال : كنا فى غزاة فحاص الناس حيصة[2] ، قلنا : كيف نلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فأتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر ، فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا: نحن الفرارون. فقال: « لا ، بل أنتم العكارون »[3] . فقبلنا يده فقال : « أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ : ﴿ **إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة** ﴾ »[4] .

وقد روى فى تحريم الفرار من الزحف ، وأنه من الكبائر أحاديث . وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر ، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس [5] ــ وأخرجه ابن أبى شيبة عن ابن عمر [6] ــ وأخرجه ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب [7] .

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٣٥ .

(٢) حاصوا حيصة: أى جالوا جولة يطلبون الفرار . اللسان ٧/ ١٩ .

(٣) والعكارون : العائدون إلى القتال والعاطفون عليه ، يقال : عكرت على الشىء ، أى : عطفت عليه ، وانصرفت إليه بعد الذهاب عنه . اللسان ٤ / ٥٩٩ .

(٤) سعيد بن منصور فى الجهاد (٢٥٣٩) وابن سعد ٤/ ٤٥ وابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٥٣٣) وأحمد ٢/ ٧٠ وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٧) والترمذى فى الجهاد (١٧١٦) وقال : « هذا حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد » والبيهقى فى الشعب (٤٠٠٢) وقال : « إسناده ضعيف » .

(٥) ابن جرير ٩/ ١٣٥ .

(٦) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٥٣٩) .

(٧) المرجع السابق فى الجهاد (١٥٥٣٨) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**فلم تقتلوهم**﴾ قال لأصحاب محمد ﷺ حين قال : هذا قتلت ، وهذا قتلت . ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال : رماهم يوم بدر بالحصباء. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر ، سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت فى طست ، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال : « شاهت الوجوه » فانهزمنا . فذلك قوله تعالى : ﴿ **وما رميت إذ رميت** . . . ﴾ الآية [١] .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال : سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن فى طست . فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن فى وجوه المشركين فانهزموا ، فذلك قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾ قال : قال رسول الله لعلى : « ناولنى قبضة من حصباء » فناوله ، فرمى بها فى وجوه القوم فما بقى أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **وما رميت إذ رميت**﴾[٢] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب ، قال : لما كان يوم أحد أخذ أبى بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله ﷺ ، واعترض رجال من المسلمين لأبى بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « استأخروا » . فاستأخروا ، فأخذ رسول الله ﷺ حربته فى يده ، فرمى بها أبى بن خلف وكسر ضلعاً من أضلاعه ، فرجع أبىّ بن خلف إلى أصحابه ثقيلا ، فاحتملوه حين ولوا قافلين ، فطفقوا يقولون : لا بأس . فقال أبى حين قالوا له ذلك: والله لو كانت بالناس لقتلتهم . ألم يقل : إنى أقتلك إن شاء الله ، فانطلق به أصحابه ينعشونه حتى مات ببعض الطريق فدفنوه . قال ابن المسيب : وفى ذلك أنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت** ﴾[٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب والزهرى نحوه . وإسناده صحيح إليهما. وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك[٤] . قال ابن كثير: وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جداً . ولعلهما أرادا أن الآية تتناولهما بعمومها . وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير كما سيأتى [٥] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير : أن رسول الله ﷺ [لما

(١) ابن جرير ٩/ ١٣٦ والطبرانى (٣١٢٧ ، ٣١٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٧ : « إسناده حسن » .
(٢) الطبرانى (١١٧٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٧ : « رجاله رجال الصحيح » .
(٣) ابن جرير ٩/ ١٣٦ ، ١٣٧ عن الزهرى نحوه .
(٤) صححه الحاكم ٢/ ٣٢٧ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٥) ابن كثير ٣/ ٢٩٢ .

خرج] يؤم ابن أبى الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن . فأقبل السهم حتى قتل ابن أبى الحقيق فى فراشه ، فأنزل الله : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **ولكن الله رمى** ﴾ أى لم يكن ذلك برميتك لولا الذى جعل الله من نصرك ، وما ألقى فى صدور عدوك حتى هزمهم ﴿ **وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا** ﴾ أى ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم فى إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ؛ ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته .

﴿ **إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)** ﴾ .

الاستفتاح : طلب النصر . وقد اختلف فى المخاطبين بالآية من هم ؟ فقيل : إنها خطاب للكفار تهكما بهم ، والمعنى : إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر . وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر ، فتهكم الله بهم ، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً . ومعنى بقية الآية على هذا القول . ﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﴿ **فهو** ﴾ أى الانتهاء ﴿**خير لكم وإن تعودوا** ﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿ **نعد** ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطناهم ونصرناهم فى يوم بدر . ﴿ **ولن تغنى عنكم فئتكم** ﴾ أى جماعتكم ﴿ **شيئاً ولو كثرت** ﴾ أى لا تغنى عنكم فى حال من الأحوال ولو فى حال كثرتها . ثم قال : ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ ومن كان الله معه فهو المنصور. ومن كان الله عليه فهو المخذول . قرئ بكسر :« إن » وفتحها . فالكسر على الاستئناف . والفتح على تقدير : ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك .

وقيل : إن الآية خطاب للمؤمنين ، والمعنى : إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر فى يوم بدر . وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك فهو خير لكم . وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم،كما فى قوله : ﴿لولا كتاب من الله سبق . . . ﴾ الآية [الأنفال : ٦٨] . ولا يخفى أنه يأبى هذا القول معنى : ﴿ **ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا** ﴾ ويأباه أيضا : ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف وتعسف .

وقيل : إن الخطاب فى ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ للمؤمنين ، وما بعده للكافرين، ولا يخفى ما فى هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية فى الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الدلائل عن ابن

شهاب عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير، أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه [١] الغداة . فكان ذلك استفتاحًا منه ، فنزلت : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ الآية [٢]. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية قال: قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أهدى الفئتين ، وأفضل الفئتين ، وخير الفئتين ، فنزلت الآية [٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ يعنى المشركين ، أى إن تستنصروا فقد جاءكم المدد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ قال : كفار قريش فى قولهم : ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه ، ففتح بينهم يوم بدر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ قال : إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء فى يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله :﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ قال : عن قتال محمد ﷺ . ﴿**وإن تعودوا نعد** ﴾ قال : إن تستفتحوا الثانية أفتح لمحمد . ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ قال : مع محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ **وإن تعودوا نعد** ﴾ يقول : نعد لكم بالأسر والقتل .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)** ﴾

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن التولى عن رسوله .فالضمير فى ﴿ **عنه** ﴾ عائد إلى الرسول؛ لأن طاعة رسول الله ﷺ هى من طاعة الله . و﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠]. ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله كما فى قوله : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة : ٦٢] وقيل : الضمير راجع إلى الأمر الذى دل عليه ﴿ **أطيعوا** ﴾ وأصل تولوا : تتولوا ، فطرحت إحدى التاءين . هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين . وبه قال الجمهور .

وقيل : إنه خطاب للمنافقين . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا ؛ لأن الله وصف من خاطبه فى هذه

---

(١) فأحنه أى : أهلكه ، والحَيْنُ ـ : بالفتح هو الهلاك . اللسان ١٣/ ١٣٦ .

(٢) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٢١) وأحمد ٥/ ٤٣١ والنسائى فى التفسير (٢٢١) وابن جرير ٩/ ١٣٨ وصححه الحاكم ٢/ ٣٢٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٤ .

(٣) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٢٨) وابن جرير ٩/ ١٣٨ .

الآية بالإيمان ، وهو : التصديق . والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء .

وأبعد من هذا من قال : الخطاب لبنى إسرائيل ، فإنه أجنبى من الآية . وجملة : ﴿ **وأنتم تسمعون** ﴾ فى محل نصب على الحال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين ، وتصدقون بها ولستم كالصم البكم . ﴿ **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا** ﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء ، فإنهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل ، فهم كالذى لم يسمع أصلا ؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه .

ثم أخبر سبحانه بـ ﴿ **إن شر الدواب** ﴾ أى ما دب على الأرض ﴿ **عند الله** ﴾ أى فى حكمه ﴿ **الصم البكم** ﴾ أى الذين لا يسمعون ولا ينطقون . وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق ؛ لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿ **الذين لا يعقلون** ﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه ، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه ، فهم شر الدواب عند الله ؛ لأنها تميز بعض تمييز ، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها .

﴿ **ولو علم الله فيهم** ﴾ أى فى هؤلاء الصم البكم ﴿ **خيراً لأسمعهم** ﴾ سماعا ينتفعون به ، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين . قال الزجاج : ﴿ **لأسمعهم** ﴾ جواب كل ما سألوا عنه . وقيل : ﴿ **لأسمعهم** ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قصى بن كلاب وغيره ، ليشهدوا بنبوة محمد ﷺ . ﴿ **ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ لأنه قد سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون . وجملة : ﴿ **وهم معرضون** ﴾ فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**وهم لا يسمعون** ﴾ قال : عاصون [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن على ابن أبى طالب فى قوله : ﴿ **إن شر الدواب عند الله** . . . ﴾ الآية . قال : إن هذه الآية نزلت فى فلان وأصحاب له . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إن شر الدواب عند الله** ﴾ قال: هم نفر من قريش من بنى عبد الدار .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ قال : لا يتبعون الحق . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث وقومه . ولعله المكنى عنه « بفلان » فيما تقدم من قول على رضى الله عنه . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم** ﴾ أى لأنفذ لهم قولهم الذى قالوا بألسنتهم ، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم [٢] . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : قالوا نحن صم عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه ، بكم لا نجيبه فيه

(١) فى المطبوعة : « غاضبون » وفى ابن جرير ٦/ ١٤٠ « عاصون » ، وهو الصواب كما أثبتناه من المخطوطة .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ٣١١.

بتصديق ، قتلوا جميعا بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)** ﴾

الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الأمر بالطاعة ، ووحد الضمير هنا حيث قال : ﴿ **إذا دعاكم** ﴾ كما وحده فى قوله : ﴿ **ولا تتولوا عنه** ﴾ . وقد قدمنا الكلام فى وجه ذلك . والاستجابة : الطاعة . قال أبو عبيدة : معنى استجيبوا : أجيبوا . وإن كان استجاب يتعدى باللام ، وأجاب بنفسه كما فى قوله : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله ﴾ [الأحقاف : ٣١] وقد يتعدى استجاب بنفسه ،كما فى قول الشاعر [١] :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ **استجيبوا** ﴾ أى استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم ، ولا مانع من أن تكون متعلقة بـ « دعا » ، أى إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة ، فإن العلم حياة ، كما أن الجهل موت . فالحياة هنا مستعارة للعلم . قال الجمهور من المفسرين : المعنى : استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **لما يحييكم** ﴾ : الجهاد ، فإنه سبب الحياة فى الظاهر ؛ لأن العدو إذا لم يغز غزا .

ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله فى حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائنا ما كان ، ويدع ما خالفه من الرأى وأقوال الرجال . وفى هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة ، وترك التقيد بالمذاهب ، وعدم الاعتداد بما يخالف ما فى الكتاب والسنة كائنا ما كان .

قوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ قيل : معناه : بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التى تعقلون بها بالموت الذى كتبه الله عليكم.وقيل : معناه : إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو ، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ، ويبدل عدوهم من الأمن خوفا . وقيل : هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق : ١٦] ومعناه : أنه مطلع على ضمائر القلوب لا تخفى عليه منها خافية .

واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم،

---

(١) الشاعر : هو كعب بن سعد الغنوى ، قاله يرثى أخاه أبا المغوار .

وأنه يحول بينهم إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئته عز وجل . ولايخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى . ﴿ **وأنه إليه تحشرون** ﴾ معطوف على ﴿ **أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ وأنكم محشورون إليه ، وهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً . قال الفراء : ولو استأنفت فكسرت همزة « إنه » لكان صوابا . ولعل مراده أن مثل هذا جائز فى العربية .

قوله : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ أى اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم . وقد اختلف النحاة فى دخول هذه النون المؤكدة فى ﴿**تصيبن** ﴾ فقال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك . فهو جواب الأمر بلفظ النهى، أى إن تنزل عنها لا تطرحنك . ومثله قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ [النمل : ١٨] أى إن تدخلوا ، لا يحطمنكم . فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء .

وقال المبرد : إنه نهى بعد أمر . والمعنى : النهى للظالمين ، أى لا يقربن الظلم . ومثله ما روى عن سيبويه : لا أرينك هاهنا ، فإن معناه : لا تكن هاهنا ، فإن من كان هاهنا رأيته. وقال الجرجانى : إن ﴿ **لا تصيبن** ﴾ نهى فى موضع وصف لفتنة . وقرأ على وزيد بن ثابت وأبى وابن مسعود : « لتصيبن » على أن اللام جواب لقسم محذوف ، والتقدير : اتقوا فتنة والله لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . فيكون معنى هذه القراءة مخالفا لمعنى قراءة الجماعة ؛ لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة بخلاف قراءة الجماعة .

﴿ **واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه ، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ، ولا يعذب إلا بجنايته ، فيمكن حمل ما فى هذه الآية على العقوبات التى تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض . ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة ، والله أعلم . ويمكن أن يقال: إن الذين لم يظلموا قد تسببوا للعقوبة بأسباب ، كترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فتكون الأسباب المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ قال : للحق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية ، قال : هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة فى الدنيا والآخرة . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ أى للحرب التى أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم [1] . وقد ثبت فى الصحيح من

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣١٢ .

حديث أبى سعيد بن المعلى ، قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ ، فلم أجبه، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلى. فقال: « ألم يقل الله : ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم** ﴾ » [١] الحديث. وفيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ قال : يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله . ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى الآية قال : علمه يحول بين المرء وقلبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية ، قال : يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل. وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال: فى القرب منه .

وأخرج أحمد والبزار وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف ، قال: قلت للزبير: يا أبا عبد الله ، ضيعتم الخليفة حتى قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه . قال الزبير : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر وعمر وعثمان : ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ ولم نكن نحسب أنا أهلها حتي وقعت فينا حيث وقعت . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال : قرأ الزبير : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ قال : البلاء والأمر الذى هو كائن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى الآية ، قال : نزلت فى على وعثمان وطلحة والزبير [٢] .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : نزلت فى أصحاب النبى ﷺ خاصة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدى قال : نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، فكان من المقتولين طلحة والزبير ، وهما من أهل بدر[٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : تصيب الظالم والصالح عامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هى مثل : ﴿ **يحول بين المرء وقلبه** ﴾ حتى يتركه لا يعقل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية ، قال : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب [٤] . وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، عمهم الله بعذاب من عنده [٥] .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٤٧٤، ٤٧٠٣) وأبو داود فى الصلاة (١٤٥٨) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٨٥) .

(٢ ، ٣) ابن جرير ٩/ ١٤٤ .

(٤) ابن جرير ٩/ ١٤٤ .

(٥) ومنها هذا الحديث عن أبى بكر رضى الله عنه قال : يا أيها الناس : إنكم تقرؤون هذه الآية :﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [المائدة:١٠٥] وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:=

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾

الخطاب بقوله : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل** ﴾ للمهاجرين ، أى اذكروا وقت قِلَّتكم . و﴿ **مستضعفون** ﴾ خبر ثان للمبتدأ . والأرض : هى أرض مكة . والخطف : الأخذ بسرعة . والمراد بالناس : مشركو قريش . وقيل : فارس والروم . ﴿**فآواكم** ﴾ يقال : آوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى انضم إليه . فالمعنى : ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار ﴿ **وأيدكم بنصره**﴾ أى قواكم بالنصر فى مواطن الحرب التى منها يوم بدر . أو قواكم بالملائكة يوم بدر ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ التى من جملتها الغنائم . ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ أى إرادة أن تشكروا هذه النعم التى أنعم بها عليكم. والخون : أصله كما فى الكشاف : النقص . كما أن الوفاء : التمام [١] ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل فى شيء فقد أدخلت عليه النقصان. وقيل : معناه الغدر وإخفاء الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ [غافر : ١٩] . نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم ، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمنهم عليه ، أو بترك شيء مما سنه لهم ، أو يخونوا شيئا من الأمانات التى ائتمنوا عليها ؛ وسميت أمانات ؛ لأنه يؤمن معها من منع الحق ، مأخوذة من الأمن .

وجملة : ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة ، فتفعلون الخيانة عن عمد ، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل . ثم قال : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ لأنهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب ، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده . وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما فى الآية الأخرى . ﴿ **وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل** ﴾ قال: كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضلالة ، من عاش عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ،

= « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » أبوداود فى الملاحم (٤٣٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٦٨) وعن حذيفة بن اليمان حديث آخر (٢١٦٩) والنسائى فى التفسير (١٧٧). وابن ماجة فى الفتن (٤٠٠٥) وحديث آخر عن عائشة (٤٠٠٤) .

(١) الكشاف : ٢ / ٢١٣ .

لا والله ما نعلم قبيلا من حاضرى الأرض يومئذ كان أشر منزلا منهم،حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس . وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا لله نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله عز وجل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يتخطفكم الناس** ﴾ قال : فى الجاهلية بمكة. ﴿ **فآواكم** ﴾ إلى الإسلام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب في قوله : ﴿ **يتخطفكم الناس** ﴾ قال : الناس إذ ذاك فارس والروم . وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم ، والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس** ﴾ قيل : يا رسول الله ، ومن الناس ؟ قال : « أهل فارس » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **فآواكم** ﴾ قال : إلى الأنصار بالمدينة ﴿ **وأيدكم بنصره** ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل النبى ﷺ فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أبا سفيان فى مكان كذا وكذا ، فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان : إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم ، فأنزل الله: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول . . .** ﴾ الآية [1] . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن أبى قتادة ، قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **لا تخونوا الله والرسول**﴾ فى أبى لبابة بن عبد المنذر ، سألوه يوم قريظة : ما هذا الأمر ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح ، فنزلت . قال أبو لبابة : ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله [2] . وأخرج سنيد وابن جرير عن الزهرى نحوه بأطول منه[3] . وأخرج عبد بن حميد عن الكلبى : أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفًا لهم ، فأومأ بيده أنه الذبح ، فنزلت . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى هذه الآية أنها نزلت فى أبى لبابة ، ونسختها الآية التى فى براءة : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ [التوبة : ١٠٢].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لا تخونوا الله** ﴾ قال : بترك فرائضه ﴿**والرسول** ﴾ بترك سننه وارتكاب معصيته ﴿ **وتخونوا أماناتكم** ﴾ يقول : لا تنقصوها . والأمانة : الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد . وأخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية فى قتل عثمان . ولعل مراده أن من جملة ما يدخل تحت عمومها قتل عثمان [4] . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبى حبيب فى الآية ، قال : هو

---

(١) ابن جرير ٩/١٤٦ وقال الشيخ محمود شاكر فى تحقيقه لابن جرير : « وهذا خبر ضعيف جداً لضعف محمد المحرم وهو متروك الحديث » وقد ذكر الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٣٠٤ وقال : « هذا إسناد غريب جدا وفى سنده وسياقه نظر » .

(٢ ـ ٤) ابن جرير ٩/١٤٦ .

الإخلال بالسلاح فى المغازى . ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم؛ وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال: ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة لأن الله يقول : ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ [التغابن:١٥] فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن [١] . وأخرج هؤلاء عن ابن زيد فى الآية قال : فتنة الاختبار اختبرهم . وقرأ : ﴿ ونبلوكم[٢] بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : ٣٥].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

جعل الله سبحانه التقوى شرطا فى الجعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون ، جريا على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضا . والتقوى : اتقاء مخالفة أوامره ، والوقوع فى مناهيه . والفرقان : ما يفرق به بين الحق والباطل . والمعنى : أنه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس . وقيل : الفرقان : المخرج من الشبهات ، والنجاة من كل ما يخافونه ، ومنه قول الشاعر :

ما لك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجو الخلد والموت طالبى وما لى من كأس المنية فرقان

وقال الفراء : المراد بالفرقان : الفتح والنصر . قال ابن إسحاق : الفرقان : الفصل بين الحق والباطل . وبمثله قال ابن زيد . وقال السدى : الفرقان : النجاة . ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ [الطلاق : ٢] . وبه قال مجاهد ومالك بن أنس .

﴿ **ويكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ أى يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ما اقترفتم من الذنوب . وقد قيل : إن المراد بالسيئات : الصغائر ، وبالذنوب التى تغفر : الكبائر . وقيل : المعنى : أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر . ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يجعل لكم فرقانا** ﴾ قال : هو المخرج . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو النجاة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس، قال : هو النصر .

(١) المرجع السابق ٩/ ١٤٧.

(٢) فى المخطوطة : « ولنبلونكم » ، وهو خطأ .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾

قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف ، أى واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك ،أو معطوف على ما تقدم من قوله : ﴿ **واذكروا** ﴾ ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التى أنعم بها عليه ، وهى نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتى بيانه . ﴿ **ليثبتوك** ﴾ أى يثبتوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما، ومنه قول الشاعر :

فقلت ويحكم ما فى صحيفتكم قالوا الخليفة أمسى مثبتا وجعًا

وقيل المعنى : ليحبسوك . يقال : أثبته إذا حبسه . وقيل : ليوثقوك . ومنه : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ [محمد : ٤] وقرأ الشعبى : « ليبيتوك » من البيات . وقرئ : « ليثبتوك » بالتشديد. ﴿ **أو يخرجوك** ﴾ معطوف على ما قبله ، أى يخرجوك من مكة التى هى بلدك وبلد أهلك . وجملة : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ مستأنفة. والمكر: التدبير فى الأمر فى خفية . والمعنى : أنهم يخفون ما يعدونه لرسول الله ﷺ من المكايد ، فيجازيهم الله على ذلك ، ويرد كيدهم فى نحورهم . وسمى ما يقع منه تعالى مكرا مشاكلة كما فى نظائره . ﴿ **والله خير الماكرين** ﴾ أى المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم ، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون ، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم .

قوله : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أى التى تأتيهم بها وتتلوها عليهم . ﴿ **قالوا** ﴾ تعنتا وتمردا وبعدا عن الحق : ﴿**قد سمعنا** ﴾ ما تتلوه علينا ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾ الذى تلوته علينا . قيل : إنهم قالوا هذا توهمًا منهم أنهم يقدرون على ذلك . فلما راموا أن يقولوا مثله ، عجزوا عنه ، ثم قالوا [1] عنادًا وتمردا : ﴿ **إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى ما يستطره الوراقون من أخبار الأولين . وقد تقدم بيانه مستوفى .

﴿ **وإذ قالوا** ﴾ أى واذكر إذ قالوا : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك** ﴾ بنصب الحق على أنه خبر كان ، والضمير للفصل . ويجوز الرفع . قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين فى إجازتها ، ولكن القراءة سنة . والمعنى : إن كان القرآن

(١) فى المطبوعة :« قال » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

الذى جاءنا به محمد هو الحق ﴿ **فأمطر علينا** ﴾ قالوا هذه المقالة مبالغة فى الجحود والإنكار . قال أبو عبيدة : يقال : أمطر فى العذاب ، ومطر فى الرحمة . وقال فى الكشاف : قد كثر الإمطار فى معنى العذاب [١] .

﴿ **أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء ، أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد. فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت** ﴾ يا محمد ﴿ **فيهم** ﴾ موجود ، فإنك ما دمت فيهم فهم فى مهلة من العذاب الذى هو الاستئصال . ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ روى أنهم كانوا يقولون فى الطواف: غفرانك ، أى وما كان الله معذبهم فى حال كونهم يستغفرونه . وقيل : المعنى : لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفره لم يعذبهم . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم ، أى وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا من بين أظهرهم ، عذبهم بيوم بدر وما بعده . وقيل : المعنى : وما كان الله معذبهم وفى أصلابهم من يستغفر الله .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل، والخطيب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ قالوا : تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق . يريدون النبى ﷺ . وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فبات علىّ على فراش النبى ﷺ حتى لحق بالغار ،فلما أصبحوا ، ثاروا إليه ، فلما رأوه عليا ، رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدرى ، فاقتصوا أثره . فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل ، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال [٢] . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبونعيم والبيهقى عن ابن عباس ، فذكر القصة بأطول مما هنا . وفيها ذكر الشيخ النجدى ، أى إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى أمر النبى ﷺ ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما ، ويعطوا كل واحد منهم سيفا ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه ، تفرق دمه فى القبائل ، فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى .فتفرقوا على ذلك [٣] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير ، قال : لما ائتمروا بالنبى ﷺ ليثبتوه أويقتلوه أويخرجوه ، قال له عمه أبو طالب : هل

---

(١) الكشاف : ٢/ ٢١٧ .

(٢) عبد الرزاق (٩٧٤٣) وأحمد ١/ ٣٤٨ والطبرانى (١٢١٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣٠: «فيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح» . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (٣٢٥١) : « فى إسناده نظر » وأبو نعيم فى الدلائل ١٤٩، ١٥٠ وابن جرير ٩/ ١٥٠ .

(٣) ابن إسحاق ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٥ وابن جرير ٩/ ١٤٩ .

تدرى ما ائتمروا بك ؟ قال : «يريدون أن يسجنونى ، أو يقتلونى ، أو يخرجونى » . قال : من حدثك بهذا ؟ قال : « ربى » . قال : نعم الرب ربك ، استوص به خيرا ، قال : «أنا أستوصى به بل هو يستوصى بى » (١) وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه (٢) . وهذا لا يصح فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ قال : قال عكرمة : هى مكية (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله : ﴿ **ليثبتوك** ﴾ يعنى : ليوثقوك . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : قتل النبى ﷺ يوم بدر صبرا عقبة بن أبى معيط ، وطعيمة بن عدى ، والنضر ابن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول فى كتاب الله ما يقول » . قال : وفيه أنزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ وهذا مرسل (٤) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى النضر بن الحارث .

وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أنس بن مالك ، قال : قال أبو جهل بن هشام : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك** .... ﴾ الآية ، فنزلت : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** .. ﴾ الآية(٥) . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنها نزلت فى أبى جهل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية أنها نزلت فى النضر بن الحارث (٦) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله (٧) . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه (٨) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ، قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك غفرانك . فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** . . ﴾ الآية .

قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبى ﷺ والاستغفار ، فذهب النبى ﷺ وبقى الاستغفار(٩) . وأخرج الترمذى وضعفه عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قال النبى ﷺ : « أنزل الله علىَّ أمانين لأمتى : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** . . ﴾ الآية . فإذا مضيت ، تركت فيهم الاستغفار »(١٠) .

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٤٩ وقال ابن كثير ٣/ ٣٠٦ : « وذكر أبى طالب فى هذا غريب جدا ، بل منكر ؛ لأن هذه الآية مدنية ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء ؛ وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين » .

(٢) ابن جرير ٩/ ١٤٩ . (٣) المرجع السابق ٩/ ١٥١ .

(٤) ابن جرير ٩/ ١٥٢ . (٥) البخارى فى التفسير(٤٦٤٨)،(٤٦٤٩) والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٥ .

(٦ ــ ٨) ابن جرير ٩/ ١٥٢ . (٩) ابن جرير ٩/ ١٥٤ والبيهقى ٥/ ٤٥ ، ٤٦ .

(١٠) الترمذى فى التفسير (٣٠٨٢) وقال : « هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضعَّفُ فى الحديث » .

وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال : كان فيكم أمانان مضى أحدهما ، وبقى الآخر ، قال: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم ....** ﴾ الآية [١] . وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه والحاكم وابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى نحوه أيضا [٢]. والأحاديث عن رسول الله ﷺ فى مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة فى كتب الحديث .

﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله** ﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان : وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم ، ووقوع الاستغفار ، ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار ــ أعنى كفار مكة ــ مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح . والمعنى : أى شىء لهم يمنع من تعذيبهم ؟ قال الأخفش : إن « أن » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال ، لرفع ﴿ **يعذبهم** ﴾ وجملة : ﴿ **وهم يصدون عن المسجد الحرام** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وما يمنع من تعذيبهم ؟ والحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت . وجملة : ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾ فى محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿ **يصدون** ﴾ وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاة البيت ، وأن أمره مفوض إليهم ، ثم قال مبينا لمن له ذلك : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ أى ما أولياؤه إلا من كان فى عداد المتقين للشرك والمعاصى ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ ذلك . والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون .

قوله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ المكاء : الصفير من مكا يمكو مكاء . ومنه قول عنترة:

وخليل غانية تركت مجندلا تمكو فريصته كشدق الأعلم

أى تصوت . ومنه مكت است الدابة : إذا نفخت بالريح . قيل : المكاء : هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له : المكاء . قال الشاعر :

---

(١) صححه الحاكم ١/ ٥٤٢ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦٥٤).
(٢) ابن جرير ٩/ ١٥٤ والحاكم ١/ ٥٤٢ وسكت عنه وكذا الذهبى ، وهو موقوف .

إذا غرد المكاء فى غير دوحة فويل لأهل الشاء والحمرات

والتصدية : التصفيق ، يقال : صد يصدى تصدية : إذا صفق . ومنه قول عمرو بن الإطنابة :

وظلوا جميعا لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية

أى بالتصفيق. وقيل : المكاء : الضرب بالأيدى . والتصدية : الصياح . وقيل : المكاء : إدخالهم أصابعهم فى أفواههم ، والتصدية : الصفير. وقيل : التصدية : صدهم عن البيت . قيل : والأصل على هذا : تصددة ، فأبدل من إحدى الدالين ياء . ومعنى الآية : أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذى هو موضع للصلاة والعبادة فوضعوا ذلك موضع الصلاة قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة . وقرئ بنصب : « صلاتهم » على أنها خبر كان ، وما بعده اسمها . قوله : ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديدا لهم ومبالغة فى إدخال الروعة فى قلوبهم . والمراد به : عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة .

قوله : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة فى الطاعات البدنية ، أتبعها شرح أحوالهم فى الطاعات المالية . والمعنى : أن غرض هؤلاء الكفار فى إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك ، وإنفاق أموالهم عليها، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب . فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ، ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال : ﴿ **فسينفقونها** ﴾ أى سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿**ثم تكون** ﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم،وكأن ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندما. ﴿ ثم ﴾ آخر الأمر ﴿ **يغلبون** ﴾ كما وعد الله به فى مثل قوله: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة: ٢١] ومعنى ﴿ ثم ﴾ فى الموضعين : إما التراخى فى الزمان لما بين الإنفاق المذكور ، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد ، وإما التراخى فى الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة، ثم قال : ﴿**والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ أى استمروا على الكفر ؛ لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن إسلامه ، أى يساقون إليها لا إلى غيرها. ثم بين العلة التى لأجلها فعل بهم ما فعله ، فقال : ﴿ **ليميز الله الخبيث** ﴾ أى الفريق الخبيث من الكفار ﴿ **من** ﴾ الفريق ﴿ **الطيب** ﴾ وهم المؤمنون. ﴿ **ويجعل الخبيث بعضه على بعض**﴾ أى يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿ **فيركمه جميعا**﴾ عبارة عن الجمع والضم ، أى يجمع بعضهم إلى بعض ، ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم . يقال : ركم الشىء يركمه : إذا جمعه وألقى بعضه على بعض. والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الفريق الخبيث . ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ أى الكاملون

فى الخسران . وقيل : الخبيث والطيب : صفة للمال . والتقدير : يميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون،فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقيه فى جهنم ، ويعذبهم بها كما فى قوله تعالى : ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ [التوبة : ٣٥] . قال فى الكشاف : واللام على هذا متعلقة بقوله : ﴿ **ثم تكون عليهم حسرة** ﴾ وعلى الأول بـ ﴿**يحشرون** ﴾ . و﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى الذين كفروا . انتهى(١).

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال : ﴿**وما لهم ألا يعذبهم الله** ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله**﴾ قال : عذابهم فتح مكة . وأخرج ابن إسحاق وأبو حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير : ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله**﴾ وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **وهم يصدون عن المسجد الحرام** ﴾ أى من آمن بالله وعبده أنت ومن اتبعك . ﴿ **وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده ، أى أنت ومن آمن بك . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ قال : من كانوا حيث كانوا.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش يعارضون النبى ﷺ فى الطواف ويستهزئون ويصفرون ويصفقون ، فنزلت : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء عن ابن عباس قال : كانت قريش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق ، فأنزل الله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ قال:والمكاء : الصفير . إنما شبهوا بصفير الطير . ﴿ **وتصدية** ﴾ : التصفيق . وأنزل الله فيهم : ﴿ قل من حرم زينة الله . . . ﴾ الآية [الأعراف : ٣٢] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه نحوه أيضا (٣) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال: المكاء : الصفير . والتصدية : التصفيق .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : المكاء : إدخال أصابعهم فى أفواههم . والتصدية : الصفير ، يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : المكاء : الصفير ، على نحو طير أبيض يقال له : المكاء . يكون بأرض الحجاز . والتصدية : التصفيق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إلا مكاء** ﴾ قال : كانوا

(١) الكشاف : ٢/٢١٩ .

(٢، ٣) ابن جرير ٩/١٥٨ .

يشبكون أصابعهم ويصفرون فيهن . ﴿ **وتصدية** ﴾ قال : صدهم الناس . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال ، وهو قوله : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** ﴾ فالمكاء مثل نفخ البوق . والتصدية : طوافهم على الشمال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك فى قوله : ﴿**فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ قال : يعنى أهل بدر ، عذبهم الله بالقتل والأسر .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل ، كلهم من طريقه ، قال : حدثنى الزهرى ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا :لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم [١] إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم ، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينوا بهذا المال على حربه . فلعلنا أن ندرك منه ثأراً . ففعلوا ، ففيهم ــ كما ذكر ابن عباس أنزل الله : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ إلى ﴿**والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ [٢] وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أبى سفيان بن حرب . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه [٣] . وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير نحوه [٤] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة فى الآية قال : نزلت فى أبى سفيان ، أنفق على مشركى قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا من ذهب[٥].

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن شمر بن عطية فى قوله : ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ قال : يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح فى الدنيا ، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى فى جهنم.وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فيركمه جميعاً** ﴾ قال : يجمعه جميعاً .

﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)** ﴾

---

(١) فلُّهم : الفَلُّ : المنهزم . اللسان ١١/ ٣٥٠ .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ٣١٤ وابن جرير ٩/ ١٦٠ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٢٥ .
(٣) ابن جرير ٩/ ١٦٠ . (٤) المرجع السابق ٩/ ١٥٩.
(٥) المرجع السابق ٩/ ١٦٠ .

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى. وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها. قال ابن عطية: ولو كان كما قال الكسائى : إنه فى مصحف عبد الله بن مسعود : « قل للذين كفروا إن تنتهوا » يعنى بالتاء المثناة من فوق ، لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها . وقال فى الكشاف: أى قل لأجلهم هذا القول. وهو ﴿ **إن ينتهوا** ﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم ، لقيل : إن تنتهوا يغفر لكم . وهى قراءة ابن مسعود ونحوه : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ [الأحقاف : ١١] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه ، أى إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول فى الإسلام ﴿ **يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ لهم من العداوة . انتهى [(١)] . وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر . قال ابن عطية : والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿**يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمنته عن الكفر ، وفى هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله .

﴿ **وإن يعودوا** ﴾ إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذى هم عليه ، ويكون العود بمعنى الاستمرار . ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ هذه العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله ، أى قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب ، فليتوقعوا مثل ذلك .

﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ أى كفر . وقد تقدم تفسير هذا فى البقرة مستوفى . ﴿**فإن انتهوا** ﴾ عما ذكر ﴿**فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء ﴿ **وإن تولوا** ﴾ عما أمروا به من الانتهاء ﴿**فاعلموا**﴾ أيها المؤمنون ﴿ **أن الله مولاكم** ﴾ أى ناصركم عليهم ﴿ **نعم المولى ونعم النصير** ﴾ فمن والاه فاز ، ومن نصره غلب.

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ قال : فى قريش وغيرها يوم بدر ، والأمم قبل ذلك . وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال: لما جعل الله الإسلام فى قلبى، أتيت النبى ﷺ فقلت : ابسط يدك فلأبايعك . فبسط يمينه ، فقبضت يدى. قال: «ما لك؟» . قلت : أردت أن أشترط . قال : « تشترط ماذا ؟ » قلت : أن تستغفر لى . قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » [(٢)]. وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » .

وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى : ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ بما مضى فى الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر . وقال السدى ومحمد بن إسحاق : المراد بالآية : **يوم** بدر . وفسر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا : بالكفر . وقال محمد بن إسحاق

(١) الكشاف ٢/ ٢١٩ .

(٢) أحمد ٤/ ١٩٨، ١٩٩ ومسلم فى الإيمان (١٢١/ ١٩٢).

بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : ﴿ **حتى لا تكون فتنة** ﴾ : حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)** ﴾

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ، ذكر حكم الغنيمة ، والغنيمة قد قدمنا أن أصلها : إصابة الغنم من العدو ، ثم استعملت فى كل ما يصاب منهم ، وقد تستعمل فى كل ما ينال بسعى . ومنه قول الشاعر :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الآخر :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم

وأما معنى الغنيمة فى الشرع : فحكى القرطبى الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى : ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شىء**﴾: مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر . قال: ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص ، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع . وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ [الأنفال : ١] وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين . وأن قوله : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر على ما تقدم أول السورة .

وقيل : إنها ــ أعنى قوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ ، محكمة غير منسوخة ، وأن الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغانمين ، وكذلك لمن بعده من الأئمة ، حكاه الماوردى عن كثير من المالكية . قالوا : وللإمام أن يخرجها عنهم، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوة ، ومن على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئاً . وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين . وممن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودى والمازرى والقاضى عياض وابن العربى . والأحاديث الواردة فى قسمة الغنمية بين الغانمين وكيفيتها كثيرة جداً .

قال القرطبى : ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال .....﴾

الآية ناسخ لقوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء** ....﴾ الآية. بل قال الجمهور : إن قوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء** ﴾ ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها[١] . قال : وأما قصة حنين فقد عوض الأنصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشا وتتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم نفسه ، فقال لهم : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم ؟ »[٢] كما فى مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول ، بل ذلك خاص به .

قوله: ﴿ **أنما غنمتم من شيء** ﴾ يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة . و﴿ **من شيء** ﴾ بيان لـ « ما » الموصولة. وقد خصص الإجماع من عموم الآية الأسارى ، فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف . وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام . وقيل : كذلك الأرض المغنومة . ورد بأنه لا إجماع على الأرض .

قوله : ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ قرأ النخعى : « فإن لله » بكسر إن ، وقرأ الباقون بفتحها على أن ﴿أن﴾ وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف ، والتقدير : فحق أو فواجب أن لله خمسه.

وقد اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة :

الأول: قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ، فيجعل السدس للكعبة ، وهو الذى لله ، والثانى لرسول الله. والثالث لذوى القربى ، والرابع لليتامى ، والخامس للمساكين ، والسادس لابن السبيل .

والقول الثانى : قاله أبو العالية والربيع : إنها تقسم الغنيمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، ويقسم أربعة على الغانمين ، ثم يضرب يده فى السهم الذى عزله ، فما قبضه من شيء جعله للكعبة ، ثم يقسم بقية السهم الذى عزله على خمسة للرسول ومن بعده.. الآية .

القول الثالث : روى عن زين العابدين على بن الحسين أنه قال : إن الخمس لنا . فقيل له: إن الله يقول: ﴿ **واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ فقال: يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا .

القول الرابع : قول الشافعى : إن الخمس يقسم على خمسة ، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية .

القول الخامس : قول أبى حنيفة : إنه يقسم الخمس على ثلاثة : اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما ارتفع حكم سهمه . قال : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجند . وروى نحو هذا عن الشافعى .

---

(١) القرطبى ٣/ ٢٨٤٦ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٣٣٧) ومسلم فى الزكاة (١٠٥٩/ ١٣٥) وكلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

القول السادس : قول مالك : إنه موكول إلى نظر الإمام واجتهاده ، فيأخذ منه بغير تقدير ، ويعطى منه الغزاة باجتهاد، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين .

قال القرطبى : وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا ، وعليه يدل قوله ﷺ : « ما لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم » (١) . فإنه لم يقسمه أخماسا ولا أثلاثا ، وإنما ذكر ما فى الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهم من يدفع إليه . قال الزجاج محتجا لهذا القول : قال الله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [البقرة : ٢١٥] . وجائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك (٢) .

قوله : ﴿ **ولذى القربى** ﴾ قيل : إعادة اللام فى ذى القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى ﷺ .

وقد اختلف العلماء فى القربى على أقوال : الأول : أنهم قريش كلها ، روى ذلك عن بعض السلف ، واستدل بما روى عن النبى ﷺ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قريش كلها قائلا : « يا بنى فلان ، يا بنى فلان » (٣) .

وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جرير ومسلم بن خالد : هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله ﷺ : « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » وشبك بين أصابعه . وهو فى الصحيح (٤) .

وقيل : هم بنو هاشم خاصة . وبه قال مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم . وهو مروى عن على بن الحسين ومجاهد.

قوله : ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله** ﴾ قال الزجاج عن فرقة : إن المعنى : فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله . وقالت فرقة أخرى : إن ﴿ **إن** ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم** ﴾ قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قوله : ﴿ **واعلموا** ﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله فى الغنائم ، فعلق ﴿ **إن** ﴾ بقوله : ﴿ **واعلموا** ﴾ على هذا المعنى ، أى إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة . وقال فى الكشاف : إنه متعلق بمحذوف يدل عليه ﴿ **واعلموا** ﴾ بمعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن

---

(١) مالك فى الجهاد (٢٢) عن عمرو بن شعيب ، وأحمد ٤/ ١٢٢ عن العرباض بن سارية، ٥/ ٣١٦ عن عبادة بن الصامت ، والنسائى ٧/ ١٣١ ، ١٣٢ عن عبادة أيضا .

(٢) القرطبى ٤/ ٢٨٥٠ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٠١) ومسلم فى الإيمان (٢٠٨/ ٣٥٥) والترمذى فى التفسير (٣٣٦٣) وقال: «حسن صحيح » كلهم عن ابن عباس رضى الله عنه .

(٤) البخارى فى فرض الخمس (٣١٤٠) وفى المناقب (٣٥٠٢) وأبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٧٨ ، ٢٩٨٠) والنسائى فى قسم الفىء ٧/ ١٣١ وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٨١) عن جبير بن مطعم رضى الله عنه.

الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله ؛ لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر . انتهى (١) .

قوله : ﴿ **وما أنزلنا على عبدنا** ﴾ معطوف على الاسم الجليل ، أى إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا . و﴿ **يوم الفرقان** ﴾: يوم بدر ؛ لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل . و﴿ **الجمعان** ﴾ : الفريقان من المسلمين والكافرين ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر .

قوله : ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين فى العدوة فى الموضعين .وقرأ الباقون بالضم فيهما.و« إذ » بدل من يوم الفرقان ، ويجوز أن يكون العامل محذوفا ، أى واذكروا إذ أنتم . والعدوة : جانب الوادى . والدنيا : تأنيث الأدنى . والقصوى : تأنيث الأقصى ، من دنا يدنو ، وقصا يقصو . ويقال : القصيا ، والأصل الواو . وهى لغة أهل الحجاز. والعدوة الدنيا : كانت مما يلى المدينة ، والقصوى : كانت مما يلى مكة ، والمعنى : وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادى إلى جهة المدينة، وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلى مكة ، وجملة :﴿ **الركب أسفل منكم** ﴾ : فى محل نصب على الحال . وانتصاب ﴿ **أسفل** ﴾ على الظرف . ومحله الرفع على الخبرية ، أى والحال أن الركب فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه . وأجاز الأخفش والكسائى والفراء رفع أسفل على معنى أشد سفلا منكم ، والركب : جمع راكب. ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة الراكبى الإبل . ولايقال لمن كان على فرس وغيرها : ركب . وكذا قال ابن فارس ، وحكاه ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة . والمراد بالركب هاهنا : ركب أبى سفيان ، وهى المراد بالعير ، فإنهم كانوا فى موضع أسفل منهم مما يلى ساحل البحر .

قيل : وفائدة ذكر هذه الحالة التى كانوا عليها ، من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم : الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته . وذلك لأن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضا لا يابس بها . وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها . وكانت العير وراء ظهر العدومع كثرة عددهم . فامتن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم . والحال هذه .

قوله : ﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد** ﴾ أى لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا فى هذا الموضع للقتال ، لخالف بعضكم بعضا ، فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ . ﴿ **ولكن** ﴾ جمع الله بينكم فى هذا الموطن ﴿ **ليقضى الله أمرا كان مفعولا** ﴾ أى حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر ، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم ، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها ، ولم يكن فى حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة . واللام فى ﴿ **ليقضى** ﴾ متعلقة بمحذوف ، والتقدير : جمعهم ليقضى .

وجملة : ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى** ﴾ بدل من الجملة التى قبلها ، أى ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة ، لئلا يبقى لأحد على الله حجة . وقيل : الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام ، أى ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق ، ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة . قرأ نافع وخلف وسهل ويعقوب والبزى وأبو بكر : « من حيى » بياءين على الأصل . وقرأ الباقون بياء واحدة على الإدغام ، وهى اختيار أبى عبيد ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف . ﴿ **وإن الله لسميع عليم** ﴾ أى سميع بكفر الكافرين عليم به ، وسميع بإيمان المؤمنين عليم به .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : ثم وضع مقاسم الفىء فقال : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء** ﴾ بعد الذى كان مضى من بدر ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن قيس بن مسلم الجدلى قال : سألت الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية عن قول الله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه** ﴾ قال : هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة . ﴿ **وللرسول ولذى القربى** ﴾ فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فى هذين السهمين ، قال قائل منهم : سهم ذى القربى لقرابة رسول الله ﷺ . وقال قائل منهم : سهم ذى القربى لقرابة الخليفة . وقال قائل منهم : سهم النبى ﷺ للخليفة من بعده ، واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله ، فكان ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر [١] .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك فى خمسه ، ثم قرأ : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم** ﴾ الآية . قال : قوله : ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ مفتاح كلام ، لله ما فى السموات وما فى الأرض ، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً ﴿ **ولذى القربى** ﴾ فجعل هذين السهمين قوة فى الخيل والسلاح ، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم ، وجعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهما ولراكبه سهما ، وللراجل سهما [٢] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس : فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس ، فربع لله

---

(١) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥١٥٣) وابن جرير ١٠/٣ والحاكم ١٢٨/٢ .

(٢) ابن جرير ١٠/٣ والطبرانى (١٢٦٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٣٤٣/٥ : « فيه نهشل بن سعيد وهو متروك » .

وللرسول ولذى القربى ، يعنى : قرابة رسول الله ﷺ ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبى ﷺ ، ولم يأخذ النبى ﷺ من الخمس شيئا ، والربع الثانى لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل ، وهو : الضيف الفقيرالذى ينزل بالمسلمين (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء** ﴾ الآية ، قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع ، يقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم ، فيعزل سهما منها ، ويقسم أربعة أسهم بين الناس ، يعنى : لمن شهد الوقعة ، ثم يضرب بيده فى جميع السهم الذى عزله ، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة ، فهو الذى سمى الله : لا تجعلوا لله نصيبا فإن لله الدنيا والآخرة ، ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم : سهم للنبى ﷺ ، وسهم لذى القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل (٢) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يجعل سهم الله فى السلاح والكراع وفى سبيل الله وفى كسوة الكعبة وطيبها ، وما تحتاج إليه الكعبة ، ويجعل سهم الرسول فى الكراع والسلاح ونفقة أهله ، وسهم ذى القربى لقرابته يضعه رسول الله ﷺ فيهم مع سهمهم مع الناس ، ولليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله فيمن شاء حيث شاء ، ليس لبنى عبد المطلب فى هذه الثلاثة الأسهم ولرسول الله ﷺ سهم مع سهام الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن حسين المعلم قال : سألت عبد الله بن بريدة عن قوله : ﴿**فأن لله خمسه وللرسول** ﴾ فقال:الذى لله لنبيه ، والذى للرسول لأزواجه . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن نجدة كتب إليه يسأله عن ذوى القربى الذين ذكر الله ، فكتب إليه: إنا كنا نرى أنا هم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربى ، وزيادة قوله : وقالوا : قريش كلها ، تفرد بها أبو معشر . وفيه ضعف (٣) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس أن نجدة الحرورى أرسل إليه يسأله عن سهم ذى القربى ، ويقول : لمن تراه ؟ فقال ابن عباس : هو لقربى رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ .وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم وأبينا أن نقبله ، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم ، وأن يقضى عن غارمهم ، وأن يعطى فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : رغبت لكم عن غسالة الأيدى لأن لكم فى خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم . رواه ابن أبى حاتم عن إبراهيم بن مهدى المصيصى ،

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٤ .
(٢) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥١٤٥) وابن جرير ١٠/ ٤ .
(٣) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٣٠١) ومسلم فى الجهاد والسير (١٨١٢/ ١٤٠) وابن جرير ١٠/ ٥ .
(٤) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٢٩٧) .

حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن حنش، عن عكرمة عنه مرفوعا. قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين : يأتى بمناكير (١). أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن الزهرى وعبد الله بن أبى بكر عن جبير بن مطعم؛ أن النبى ﷺ قسم سهم ذوى القربى من خيبر على بنى هاشم وبنى المطلب. قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخوانك من بنى هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك منهم، أرأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا ، فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة فى النسب ؟ فقال : « إنهم لم يفارقونا فى الجاهلية والإسلام » . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٢).

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم ، قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل على ، وآل العباس ، وآل جعفر ، وآل عقيل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : كان للنبى ﷺ شىء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس. وأخرج ابن أبى شيبة وابن مردويه عن على قال : قلت : يا رسول الله ، ألا وليتنى ما خصنا الله به من الخمس ؟ فولانيه (٣) . وأخرج الحاكم وصححه عنه قال : ولانى رسول الله ﷺ خمس الخمس ، فوضعته مواضعه حياة رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر (٤).

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ قال : هو يوم بدر ، وبدر ما بين مكة والمدينة (٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ قال : هو يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل . وأخرج ابن مردويه عن على بن أبى طالب ، قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان . وأخرجه عنه ابن جرير أيضا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا** ﴾ قال : العدوة الدنيا شاطئ الوادى . ﴿ **والركب أسفل منكم** ﴾ قال : أبو سفيان . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : العدوة الدنيا : شفير الوادى الأدنى . والعدوة القصوى : شفير الوادى الأقصى .

﴿ **إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي** ﴾

---

(١) ابن كثير ٣/ ٣٢٤ .

(٢) فى المخطوطة : «مسلم » ، ولم تعزه التحفة إلى مسلم وإنما للبخارى ولعله سهو أو سبق قلم من المصنف والحديث سبق تخريجه .

(٣) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٢٩٦).

(٤) صححه الحاكم ٢/ ١٢٨، ٣/ ٣٩، ٤٠ ووافقه الذهبى.

(٥) ابن جرير ١٠/ ٧ ، ٨ .

﴿ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٤) ﴾

« إذ » منصوب بفعل مقدر ، أى اذكر ، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان . والمعنى : أن النبى ﷺ رآهم فى منامه قليلا ، فقص ذلك على أصحابه ، فكان ذلك سببا لثباتهم . ولو رآهم فى منامه كثيرا ، لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا فى الأمر ، هل يلاقونهم أم لا ؟ ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ أى سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع ، فقللهم فى عين رسول الله ﷺ فى المنام . وقيل : عنى بالمنام محل النوم ، وهو العين ، أى فى موضع منامك وهو عينك . روى ذلك عن الحسن . قال الزجاج : هذا مذهب حسن ، ولكن الأول أسوغ فى العربية ؛ لقوله : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم** ﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء وأن تلك رؤية النوم .

قوله : ﴿ **وإذ يريكموهم** ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول ، أى واذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلا ، حتى قال القائل من المسلمين لآخر : أتراهم سبعين ؟ قال: هم نحو المائة . وقلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال قائلهم : إنما هم أكلة جزور ، وكان هذا قبل القتال ، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ، كما قال فى آل عمران : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ [آل عمران : ١٣] ووجه تقليل المسلمين فى أعين المشركين هو : أنهم إذا رأوهم قليلا أقدموا على القتال غير خائفين ، ثم يرونهم كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه . واللام فى : ﴿ **ليقضى الله أمرا كان مفعولا** ﴾ متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريبا . وإنما كرره لاختلاف المعلل به . ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ كلها يفعل فيها ما يريد ويقضى فى شأنها ما يشاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلا** ﴾ قال : أراه الله إياهم فى منامه قليلا ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتا لهم . وأخرج ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولو أراكهم كثيرا لفشلتم** ﴾ يقول : لجبنتم ﴿**ولتنازعتم فى الأمر** ﴾ قال : لاختلفتم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ أى أتم ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه: ﴿ **ولكن الله سلم** ﴾ يقول : سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وإذ يريكموهم** ....﴾ الآية قال : لقد قلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ قال : لا بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلا منهم ، فسألناه قال : كنا ألفا. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال :حضض بعضهم على بعض . قال ابن كثير : إسناده صحيح [١] . وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى

(١) ابن كثير ٣/ ٣٢٩ .

قوله: ﴿ **ليقضى الله أمرا كان مفعولا** ﴾ أى ليلقى [١] بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته[٢].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)** ﴾

قوله : ﴿ **إذا لقيتم فئة** ﴾ اللقاء : الحرب ، والفئة : الجماعة ، أى إذا حاربتم جماعة من المشركين ﴿ **فاثبتوا** ﴾ لهم ولا تجبنوا عنهم ، وهذا لا ينافى الرخصة المتقدمة فى قوله : ﴿ **إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة** ﴾ فإن الأمر بالثبات هو فى حال السعة ، والرخصة هى فى حال الضرورة . وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف والتحيز . ﴿ **واذكروا الله** ﴾ أى اذكروا الله عند جزع قلوبكم فإن ذكره يعين على الثبات فى الشدائد . وقيل : المعنى : اثبتوا بقلوبكم واذكروا بألسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان ، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان . قيل : وينبغى أن يكون الذكر فى هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت: ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة : ٢٥٠] وفى الآية دليل على مشروعية الذكر فى جميع الأحوال ، حتى فى هذه الحالة التى ترجف فيها القلوب وتزيغ عندها البصائر ، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه ، ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف فى الرأى، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل ، وهو الجبن فى الحرب . والفاء جواب النهى ، والفعل منصوب بإضمار أن ، ويجوز أن يكون الفعل معطوفا على ﴿ **تنازعوا** ﴾ مجزوما بجازمه . قوله : ﴿ **وتذهب ريحكم** ﴾ قرئ بنصب الفعل، وجزمه عطفا على تفشلوا على الوجهين . والريح : القوة والنصر ، كما يقال : الريح لفلان : إذا كان غالبا فى الأمر . وقيل : الريح : الدولة ، شبهت فى نفوذ أمرها بالريح فى هبوبها ، ومنه قول الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فعقبى كل خافقة سكون

---

(١) فى المخطوطة : « ليلف » والصحيح ما أثبتناه من ابن كثير ٣/ ٣٢٩ .

(٢) قال ابن كثير ٣/ ٣٢٩ : «ومعنى ذلك: أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر وقلله فى عينه ليطمع فيه».

وقيل : المراد بالريح : ريح الصبا ؛ لأن بها كان ينصر النبى ﷺ ، ثم أمرهم بالصبر على شدائد الحرب وأخبرهم بأنه مع الصابرين فى كل أمر ينبغى الصبر فيه ، ويا حبذا هذه المعية التى لا يغلب من رزقها غالب ، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة ، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس وهم قريش ، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التى مع أبى سفيان ومعهم القيان والمعازف ، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت ، فلم يرجعوا بل قالوا : لابد لهم من الوصول إلى بدر ليشربوا الخمر وتغنى لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم ، فكان ذلك منهم بطرا وأشرا وطلبا للثناء من الناس وللتمديح إليهم والفخر عندهم وهو الرياء . قيل : والبطر فى اللغة : التقوى بنعم الله على معاصيه وهو مصدر فى موضع الحال ، أى خَرجوا بطرين مرائين . وقيل : هو مفعول له وكذا رياء ، أى خرجوا للبطر والرياء .

وقوله : ﴿ **ويصدون** ﴾ معطوف على بطرا ، والمعنى كما تقدم ، أى خرجوا بطرين مرائين صادين عن سبيل الله أو للصد عن سبيل الله ، والصد : إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية ، ويجوز أن يكون ﴿ **ويصدون** ﴾ معطوفا على يخرجون ، والمعنى : يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد . ﴿ **والله بما يعملون محيط** ﴾ لا تخفى عليه من أعمالهم خافية فهو مجازيهم عليها .

قوله : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى واذكر يا محمد وقت تزيين الشيطان لهم أعمالهم . والتزيين : التحسين ، وقد روى أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة وهى : ﴿ **لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** ﴾ (١) أى مجير لكم من كل عدو أو من بنى كنانة ، ومعنى الجار هنا : الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار، وكان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم (٢) ، وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم . وقيل: المعنى : إنه ألقى فى روعهم هذه المقالة . وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ﴿ **فلما تراءت الفئتان** ﴾ أى فئة المسلمين والمشركين ﴿ **نكص على عقبيه** ﴾ أى رجع القهقرى ، ومنه قول الشاعر :

ليس النكوص على الأعقاب مكرمة ... إن المكارم إقدام على الأمل

وقول الآخر :

وما نفع المستأخرين نكوصهم ... ولا ضر أهل السابقات التقدم

---

(١) ابن إسحاق ٢/ ٣٠٤ .

(٢) صحابى ، له شعر ، وله فى كتب الحديث تسعة عشر حديثا ، وكان فى الجاهلية قائفا ــ اقتصاص الأثر وإصابة الفراسة ــ أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ ،و توفى عام ٢٤ هـ .الإصابة ٢/ ١٩ وأسد الغابة ٢/ ٢٦٤ .

وقيل : معنى نكص ها هنا : بطل كيده وذهب ما خيله . ﴿ **وقال إنى برىء منكم** ﴾ أى تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنى أرى ما لا ترون** ﴾ يعنى الملائكة ، ثم علل بعلة أخرى فقال : ﴿ **إنى أخاف الله** ﴾ قيل: خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الوقعة . وقيل : إن دعوى الخوف كذب منه ، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك ، وجملة : ﴿ **والله شديد العقاب** ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس ، ويحتمل أن تكون كلاما مستأنفا من جهة الله سبحانه.

قوله : ﴿ **إذ يقول المنافقون**﴾ الظرف معمول لفعل محذوف هو : اذكر ، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزين أو بشديد العقاب . قيل : المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ هم الشاكون من غير نفاق بل لكونهم حديثى عهد بالإسلام فوافقوا المنافقين فى قولهم بهذه المقالة أعنى : ﴿ **غر هؤلاء** ﴾ أى المسلمين ﴿ **دينهم** ﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش . وقيل : الذين فى قلوبهم مرض : هم المشركون ، ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون فى المدينة وما حولها . وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رأوهم فى قلة من العَدَد وضعف من العُدَد ، فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز** ﴾ لا يغلبه غالب، ولا يذل من توكل عليه ﴿ **حكيم** ﴾ له الحكمة البالغة التى تقصر عندها العقول .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله: ﴿ **واذكروا الله** ﴾ قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون : عند الضراب بالسيوف . وأخرج الحاكم وصححه ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « ثنتان لا يردان : الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا » (١) . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ يقول : لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم. وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وتذهب ريحكم** ﴾ قال: نصركم . وقد ذهب ريح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم** ﴾ الآية ، يعنى : المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ١١٣، ١١٤ ووافقه الذهبى .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ١١٦ ووافقه الذهبى .

والدفوف ، فأنزل الله هذه الآية (١) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر ، عن مجاهد فى الآية قال : أبو جهل وأصحابه يوم بدر . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال: كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبى الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بغى وفخر، وقد قيل لهم يومئذ : ارجعوا فقد انطلقت عيركم وقد ظفرتم ، فقالوا : لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا . وذكر لنا : أن نبى الله ﷺ قال يومئذ : « اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك » وذكر لنا أنه قال يومئذ : « جاءت من مكة أفلاذها » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : جاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مدلج ، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان : ﴿ **لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** ﴾ وأقبل جبريل على إبليس ، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى مدبرا وشيعته، فقال الرجال : يا سراقة ، إنك جار لنا فقال : ﴿ **إنى أرى ما لا ترون** ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿ **إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ (٢) قال : ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين فى أعين المشركين وقلل المشركين فى أعين المسلمين . فقال المشركون : وما هؤلاء ؟ غر هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون فى ذلك . فقال الله : ﴿ **ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ . وأخرج (٣) الطبرانى وأبو نعيم عن رفاعة بن رافع الأنصارى قال : لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك ، فوكز فى صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقى نفسه فى البحر ورفع يديه فقال : اللهم إنى أسألك نظرتك إياى (٤) . وأخرج الواقدى وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **إنى أرى ما لا ترون** ﴾ قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة ، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة وقال : ﴿ **إنى أخاف الله** ﴾ وكذب عدو الله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن معمر قال : ذكروا أنهم أقبلوا على سراقة بن مالك بعد ذلك ، فأنكر أن يكون قال شيئا من ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ يقول المنافقون** ﴾ قال: وهو يومئذ فى المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ قال:هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين . وأخرج عبد الرزاق

---

(١) ابن جرير ١٠/ ١٣ .
(٢) ابن جرير ١٠/ ١٤ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٧٩ .
(٣) فى المطبوعة : « أو خرج » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .
(٤) الطبرانى (٤٥٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٨٠ : « فيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف » وهذا الأثر روى ابن جرير أيضا عن ابن عباس مثله ١٠/ ١٤ .

وابن المنذر عن الكلبى فى قوله: ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ قال : هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا المسلمين قالوا : ﴿ **غر هؤلاء دينهم** ﴾ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبى نحوه .

﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ولو ترى** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه فى غير موضع ، والمعنى : ولو رأيت ؛ لأن « لو » تقلب المضارع ماضيا . و « إذ » ظرف لترى ، والمفعول محذوف ، أى ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم . قيل: أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر . وقيل : هى فيمن قتل ببدر وجواب «لو» محذوف تقديره : لرأيت أمرا عظيما . وجملة : ﴿ **يضربون وجوههم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمراد بأدبارهم أستاههم ، كنى عنها بالأدبار . وقيل : ظهورهم . قيل : هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيده ذكر التوفى . وقيل : هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار . قوله : ﴿**وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ قال الفراء ، المعنى : ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق ، والجملة معطوفة على يضربون. وقيل : إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم ، والذوق قد يكون محسوسا ، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ، وأصله من الذوق بالضم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الضرب والعذاب ، والباء فى : ﴿ **بما قدمت أيديكم** ﴾ سببية ، أى ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصى واقترفتم من الذنوب ، وجملة : ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أنه لا يظلمهم ، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبرا لقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ وهى ﴿ **بما قدمت أيديكم** ﴾ أى ذلك العذاب بسبب المعاصى، وبسبب ﴿ **أن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وأوضح لهم السبيل ، وهداهم النجدين كما قال سبحانه : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [النحل : ١١٨] .

قوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ لما ذكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته فى فرق الكافرين . والدأب : العادة ، والكاف فى محل الرفع على الخبرية لمبتدأ

محذوف ، أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ﴿ **والذين من قبلهم** ﴾ . والمعنى : أنه جوزى هؤلاء كما جوزى أولئك ، فكانت العادة فى عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله فى تعذيب طوائف الكفر، وجملة قوله : ﴿ **كفروا بآيات الله** ﴾ مفسرة لدأب آل فرعون ، أى دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله ، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم ، والمراد بذنوبهم : معاصيهم المترتبة على كفرهم ، فيكون الباء فى: ﴿ **بذنوبهم** ﴾ للملابسة ، أى فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ، وجملة : ﴿ **إن الله قوى شديد العقاب** ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى العقاب الذى أنزله الله بهم ، وهو مبتدأ وخبره ما بعده. والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله . والمعنى : أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله فى عباده عدم تغيير نعمه التى ينعم بها عليهم ﴿ **حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه ، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين ، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات فى الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم،كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه ،والعمل به من شكرها وقبولها، وجملة : ﴿ **وأن الله سميع عليم** ﴾ معطوفة على ﴿ **بأن الله لم يك مغيرا نعمة** ﴾ داخلة معها فى التعليل ، أى ذلك بسبب أن الله لم يك مغيرا ، إلخ . وبسبب أن الله سميع عليم : يسمع ما يقولونه ، ويعلم ما يفعلونه . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف .

ثم كرر ما تقدم ، فقال : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم** ﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق ، وقيل : إن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم ، والثانى : باعتبار ما فعل بهم . وقيل : المراد بالأول : كفرهم بالله ، والثانى : تكذيبهم الأنبياء . وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف ، والكلام فى: ﴿ **أهلكناهم بذنوبهم** ﴾ كالكلام المتقدم فى : ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ . ﴿ **وأغرقنا آل فرعون** ﴾ معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم ، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم ، كما كان يجرى منهم فى معاملاتهم للناس بأنواع الظلم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة** ﴾ قال : الذين قتلهم الله ببدر من المشركين . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : قال رجل : يا رسول الله، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوك.قال : « ذلك ضرب الملائكة » وهذا مرسل (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد

(١) ابن جرير ١٠/١٧ .

فى قوله : ﴿ **وأدبارهم** ﴾ قال : وأستاههم ، ولكن الله كريم يكنى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ قال : نعمة الله : محمد ﷺ ، أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار .

﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)** ﴾ .

قوله : ﴿ **إن شر الدواب** ﴾ أى شر ما يدب على وجه الأرض ﴿ **عند الله** ﴾ أى فى حكمه ﴿ **الذين كفروا** ﴾ أى المصرون على الكفر المتمادون فى الضلال . ولذا قال : ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ أى إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبدا ، ولا يرجعون عن الغواية أصلا ، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم فى جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم . قوله : ﴿ **الذين عاهدت منهم** ﴾ بدل من الذين كفروا أو عطف بيان أو فى محل نصب على الذم . والمعنى : أن هؤلاء الكافرين الذين هو شر الدواب عند الله هم هؤلاء الذين عاهدت منهم ، أى أخذت منهم عهدهم ، ثم هم ﴿ **ينقضون عهدهم** ﴾ الذى عاهدتهم ﴿ **فى كل مرة** ﴾ من مرات المعاهدة ، والحال أنهم ﴿ **لا يتقون** ﴾ النقض ، ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه . وقيل : إن « من » فى قوله : ﴿ **منهم** ﴾ للتبعيض ، ومفعول عاهدت محذوف ، أى الذين عاهدتهم ، وهم بعض أولئك الكفرة ، يعنى الأشراف منهم ، وعطف المستقبل وهو ﴿ **ثم ينقضون** ﴾ على الماضى ، وهو ﴿ **عاهدت** ﴾ ؛ للدلالة على استمرار النقض منهم ، وهؤلاء هم قريظة ، عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتى ، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم ، فقال : ﴿ **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أى فإما تصادفنهم فى ثقاف وتلقاهم فى حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أى ففرق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء . والثقاف فى أصل اللغة : ما يشد به القناة أو نحوها ، ومنه قول النابغة :

تدعو قعينا وقد عض الحديد بها عض الثقاف على صم الأنابيب (١)

(١) البيت يوجد فى ديوانه ص ٥٩ وهو من قصيدته « لم يبق غير طريد » ، وقد جاء البيت فى المطبوعة محرفا ففيه : « غص » بدلا من « عضّ » ، وأيضا « ضم » بدلا من « صم » .

يقال: ثقفته : وجدته ، وفلان ثقف : سريع الوجود لما يحاوله ، والتشريد : التفريق مع الاضطراب . وقال أبو عبيدة : ﴿ **شرد بهم** ﴾ : سمع بهم . وقال الزجاج : افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم ، يقال : شردت بنى فلان : قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . قال الشاعر :

أطوّف فى الأباطح كل يوم مخافة أن يشردنى حكيم

ومنه شرد البعير : إذا فارق صاحبه ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « فشرذ بهم » بالذال المعجمة . قال قطرب : التشريذ بالذال المعجمة هو: التنكيل ، وبالمهملة : هو التفريق . وقال المهدوى : الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما . قال : ولا يعرف فشرذ فى اللغة ، وقرئ : « من خلفهم » بكسر الميم والفاء .

قوله : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة** ﴾ أى غشا ونقضا للعهد من القوم المعاهدين ﴿ **فانبذ إليهم** ﴾ أى فاطرح إليهم العهد الذى بينك وبينهم ﴿ **على سواء** ﴾ : على طريق مستوية . والمعنى : أنه يخبرهم إخبارا ظاهرا مكشوفا بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة . وقيل : معنى ﴿ **على سواء** ﴾ : على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم أو تستوى أنت وهم فيه . قال الكسائى : السواء : العدل ، وقد يكون بمعنى الوسط ، ومنه قوله : ﴿ فى سواء الجحيم ﴾ [الصافات : ٥٥] ، ومنه قول حسان :

يا ويح أنصار النبى ورهطه بعد المغيب فى سواء الملحد

ومن الأول قول الشاعر :

فاضرب وجوه الغدر الأعداء حتى يجيبوك إلى سواء

وقيل : معنى ﴿ **فانبذ إليهم على سواء** ﴾ : على جهر لا على سر ، والظاهر أن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه . قال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾، ثم ابتدأ تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره بما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، وجملة : ﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ تعليل لما قبلها ، ويحتمل أن تكون تحذيرا لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة .

قوله : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية . وقرأ الباقون بالمثناة من فوق . فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا : فاعل الحسبان ، ويكون مفعوله الأول محذوفا ، أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، ومفعوله الثانى : سبقوا ، ومعناه : فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم . وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ . ومفعوله الأول: الذين كفروا ، والثانى : سبقوا . وقرئ : « إنهم سبقوا » ، وقرئ :« يحسبن » بكسر

الياء . وجملة : ﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ تعليل لما قبلها ، أى أنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم . وقرأ ابن عامر : « أنهم » بفتح الهمزة ، والباقون بكسرها ، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة تعليلية . وقيل : المراد بهذه الآية : من أفلت من وقعة بدر من المشركين . والمعنى : أنهم وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون . بل هم واقعون فى عذاب الله فى الدنيا أو فى الآخرة . وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم أن قراءة من قرأ : « يحسبن » بالتحتية لحن ، لا تحل القراءة بها ؛لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول. وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل شديد . ومعنى هذه القراءة : ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا ، فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين . وقال المهدوى : يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلا . والمفعول الأول محذوف ، والمعنى : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . قال مكى : ويجوز أن يضمر مع سبقوا « أن» فتسد مسد المفعولين، والتقدير : ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ، فهو مثل : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا ﴾ [العنكبوت : ٢] فى سد أن مسد المفعولين .

ثم أمر سبحانه بإعداد القوة للأعداء ، والقوة : كل ما يتقوى به فى الحرب ، ومن ذلك السلاح والقسى . وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول :« ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ ألا إن القوة الرمى» قالها ثلاث مرات [1] .وقيل : هى الحصون ، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين قوله : ﴿ **ومن رباط الخيل** ﴾ قرأ الحسن وعمرو بن دينار وأبو حيوة : « ومن ربط الخيل » بضم الراء والباء ككتب جمع كتاب . قال أبو حاتم : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، وهى الخيل التى ترتبط بإزاء العدو . ومنه قول الشاعر :

أمر الإله بربطها لعدوه ... فى الحرب إن الله خير موفق

قال فى الكشاف : والرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله . ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة ،ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال. انتهى[2] . ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به فى الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام وجملة: ﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ فى محل نصب على الحال ،والترهيب: التخويف. والضمير فى: ﴿ **به** ﴾ عائد إلى « ما » فى ﴿ **ما استطعتم** ﴾ أو إلى المصدر المفهوم من ﴿ **وأعدوا** ﴾ وهو الإعداد . والمراد بعدو الله وعدوهم:هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركى العرب. قوله: ﴿ **وآخرين من دونهم** ﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم،ومعنى من دونهم : من

---

(١) أحمد ٤ / ١٥٧ ومسلم فى الإمارة (١٩١٧ / ١٦٧) وأبو داود فى الجهاد (٢٥١٤) والترمذى فى التفسير (٣٠٤٣) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨١٣) والدارمى فى الجهاد ٢ / ٢٠٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٣٢ .

غيرهم . قيل : هم اليهود. وقيل : فارس والروم .وقيل : الجن ، ورجحه ابن جرير [١] . وقيل: المراد بالآخرين من عدوهم : كل من لا تعرف عداوته ، قاله السهيلى . وقيل : هم بنو قريظة خاصة ، وقيل غير ذلك ، والأولى الوقف فى تعيينهم لقوله : ﴿ **لا تعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ . قوله: ﴿ **وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله** ﴾ أى فى الجهاد وإن كان يسيرا حقيرا ﴿ **يوف إليكم** ﴾ جزاؤه فى الآخرة ، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقا . ﴿**وأنتم لا تظلمون** ﴾ فى شىء من هذه النفقة التى تنفقونها فى سبيل الله ،أى من ثوابها بل يصير ذلك إليكم وافيا وافرا كاملا ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[النساء: ٤٠].﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ [آل عمران:١٩٥] .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : نزلت ﴿ **إن شر الدواب عند الله** ....﴾ الآية فى ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم** ﴾ قال : قريظة يوم الخندق مالؤوا على رسول الله ﷺ أعداءه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فشرد بهم من خلفهم** ﴾ قال : نكل بهم من بعدهم . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال :نكل بهم من وراءهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد ابن جبير فى الآية قال: أنذر بهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : عظ بهم من سواهم من الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال :أخفهم بهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله:﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ يقول:لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا فى طلب القوم فاخرج فإن الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة** ...﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ قال : لا يفوتونا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ قال : الرمى والسيوف والسلاح .

وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ قال : أمرهم بإعداد الخيل . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن عكرمة فى الآية قال: القوة:ذكور الخيل، والرباط : الإناث . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب فى الآية قال : القوة: الفرس إلى السهم فما دونه.وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال: القوة :الحصون ، ﴿ **ومن رباط الخيل** ﴾ قال : الإناث . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة

---

(١) ابن جرير ١٠ / ٢٣ .

وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ قال : تخزون به عدو الله وعدوكم . وقد ورد فى استحباب الرمى وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة ، وكذلك ورد فى استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها . وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات .

﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)** ﴾ .

الجنوح: الميل ، يقال: جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه، ومنه قيل للأضالع : جوانح ؛ لأنها مالت إلى الحنوة ، وجنحت الإبل : مالت أعناقها فى السير ، ومنه قول ذى الرمة :

إذا مات فوق الرحل أحييت روحه ... بذكراك والعيس المراسيل جنح

ومثله قول عنترة :

جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب

يعنى الطير ، والسلم : الصلح . وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيصن والمفضل بكسر السين ، وقرأ الباقون بفتحها ، وقرأ العقيلى : « فاجنح » بضم النون ، وقرأ الباقون بفتحها . والأولى : لغة قيس ، والثانية : لغة تميم . قال ابن جنى : ولغة قيس هى القياس ، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب ، أو هى مؤولة بالخصلة ، أو الفعلة . وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟ فقيل : هى منسوخة بقوله: ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٥] . وقيل : ليست بمنسوخة ؛ لأن المراد بها الجزية ، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم ، فتكون خاصة بأهل الكتاب . وقيل : إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه ، وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا (١) وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ [محمد : ٣٥] . وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون فى عزة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك ، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش ، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك ، وكلام أهل العلم فى هذه المسألة معروف مقرر فى مواطنه ﴿ **وتوكل على الله** ﴾ فى جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم (٢) ، فـ ﴿ **إنه** ﴾ سبحانه ﴿ **هو السميع** ﴾ لما يقولون ﴿ **العليم** ﴾ بما يفعلون .

﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك** ﴾ بالصلح ، وهم مضمرون الغدر والخدع ﴿**فإن حسبك الله**﴾ أى كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر ، وجملة ﴿**هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين**﴾

(١) فى المطبوعة : « ولا تهنوا » .

(٢) فى المطبوعة : « مكرمهم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تعليلية ، أى لا تخف من خدعهم ومكرهم فإن الله الذى قواك عليهم بالنصر فيما مضى ــ وهو يوم بدر ــ هو الذى سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث ، والمراد بالمؤمنين : المهاجرون والأنصار ، ثم بيّن كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال : ﴿**وألف بين قلوبهم**﴾ وظاهره العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التى أيد الله بها رسوله . وقال جمهور المفسرين : المراد : الأوس والخزرج ، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة فألف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ . وقيل : أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار ، والحمل على العموم أولى ، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه ، حتى جاء الإسلام فصاروا يدا واحدة ، وذهب ما كان بينهم من العصبية ، وجملة : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها ، والمعنى : أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال ، ولو أنفق الطالب له جميع ما فى الأرض لم يتم له ما طلبه من التأليف ؛ لأن أمرهم فى ذلك قد تفاقم جدا ﴿ **ولكن الله ألف بينهم** ﴾ بعظيم قدرته وبديع صنعه ﴿ **إنه عزيز** ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يستعصى عليه أمر من الأمور ﴿ **حكيم** ﴾ فى تدبيره ونفوذ نهيه وأمره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن جنحوا للسلم** ﴾ قال : قريظة . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : نزلت فى بنى قريظة نسختها : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . . . ﴾ إلى آخر الآية [محمد : ٣٥] .وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلم : الطاعة. وأخرج أبو الشيخ عنه فى الآية قال : إن رضوا فارض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : إن أرادوا الصلح فأرده . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال :نسختها هذه الآية: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ إلى قوله :﴿ وهم صاغرون ﴾ [التوبة : ٢٩] .وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، والنحاس فى ناسخه،وأبو الشيخ عن قتادة قال:ثم نسخ ذلك:﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك** ﴾ قال : قريظة .وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وبالمؤمنين** ﴾ قال : بالأنصار . وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا . وأخرج ابن عساكر عن أبى هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلا الله ، أنا الله وحدى لا شريك لى، ومحمد عبدى ورسولى، أيدته بعلمى ، وذلك قوله : ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ .

وأخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا والنسائى والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود ؛ أن

هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا** ... ﴾ الآية [١] .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، واللفظ له عن ابن عباس قال : قرابة الرحم تقطع ، ومنة المنعم تكفر ، ولم نر مثل تقارب القلوب ، يقول الله : ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا** ... ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم والبيهقى عنه نحوه ، وليس فى هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول ، ولكن الشأن فى قول ابن مسعود رضى الله عنه : إن هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله مع أن الواقع قبلها : ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾ والواقع بعدها : ﴿**يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ومع كون الضمير فى قوله : ﴿ **ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولا شبهة ، وكذلك الضمير فى قوله : ﴿ **ولكن الله ألف بينهم** ﴾ فإن هذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله ﷺ .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ليس هذا تكريرا لما قبله فإن الأول مقيد بإرادة الخدع ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله** ﴾ فهذه كفاية خاصة ، وفى قوله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله** ﴾ كفاية عامة غير مقيدة ، أى حسبك الله فى كل حال ، والواو فى قوله : ﴿ **ومن اتبعك** ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف ، والمعنى : حسبك الله وحسبك المؤمنين ، أى كافيك الله وكافيك المؤمنين ، ويحتمل أن تكون بمعنى مع كما تقول : حسبك وزيدا درهم ، والمعنى : كافيك وكافى المؤمنين الله ؛ لأن عطف الظاهر على المضمر فى مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر فى علم النحو ، وأجازه الكوفيون . قال الفراء : ليس بكثير فى كلامهم أن تقول : حسبك وأخيك ، بل المستعمل أن يقال : حسبك وحسب

(١) ابن المبارك فى الزهد (٣٦٣) وابن أبى شيبة ١٣ / ٥٦٧ ولكنه عن مجاهد ، وابن أبى الدنيا فى الإخوان (١٤) والنسائى فى التفسير (٢٣٠) والبزار فى كشف الأستار (٢٢١٥) وصححه الحاكم ٢ / ٣٢٩ ووافقه الذهبى ، والذهبى فى السير ٥ / ٣٩٦ ، ٣٩٧ والبيهقى فى الشعب (٩٠١٣) ط : الكتب العلمية . وذكره الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣٠ ، ٣١ وقال : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير جنادة بن سلم وهو ثقة » كذا قال . وفى مسند البزار : « مسلم بن جنادة » وهو الصواب كما لا يخفى .

(٢) البيهقى فى الشعب (٩٠٣٢ ــ ٩٠٣٤) .

أخيك بإعادة الجار ، فلو كان قوله : ﴿ **ومن اتبعك** ﴾ مجرورا لقيل : حسبك الله وحسب من اتبعك ، واختار النصب على المفعول معه النحاس . وقيل : يجوز أن يكون المعنى : ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر .

وقوله : ﴿ **حرض المؤمنين على القتال** ﴾ أى حثهم وحضهم ، والتحريض فى اللغة : المبالغة فى الحث وهو : كالتحضيض ، مأخوذ من الحرض ، وهو أن ينهكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه إلى الهلاك لو تخلف عن المأمور به . ثم بشرهم تثبيتا لقلوبهم وتسكينا لخواطرهم بأن الصابرين منهم فى القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار ، فقال : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ ثم زاد هذا إيضاحا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد ، بل هى جارية فى كل عدد فقال : ﴿ **وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا** ﴾ وفى هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال ، وقد وجد فى الخارج ما يخالف ذلك .فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين ، بل مثل نصفهم بل مثلهم . وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا بالخارج لا يخالف ما فى الآية لاحتمال ألا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر . وقيل : إن هذا الخبر الواقع فى الآية هو فى معنى الأمر ، كقوله تعالى:﴿ والوالدات يرضعن ﴾ [البقرة:٢٣٣] ،﴿ والمطلقات يتربصن ﴾ [البقرة : ٢٢٨] . فالمؤمنون كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم، ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال : ﴿ **فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين** ﴾ إلى آخر الآية ، فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنين من الكفار . وقرأ حمزة وحفص عن عاصم : ﴿ **ضعفا** ﴾ بفتح الضاد .

وقوله : ﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **يغلبوا** ﴾ ،أى إن هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم ،وأنهم يقاتلون على غير بصيرة،ومن كان هكذا فهو مغلوب فى الغالب . وقد قيل فى نكتة التنصيص على غلب العشرين للمائتين ، والمائة للألف : إن سراياه التى كان يبعثها ﷺ كان لا ينقص عددها عن العشرين ولا يجاوز المائة . وقيل فى التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين والألف للألفين : على أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف ، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره لا بقوتهم وجلادتهم ، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين ، وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به ، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر ؛ لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه . وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

وقد أخرج البزار عن ابن عباس قال :لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم ، وأنزل الله : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ . وأخرج الطبرانى

وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أسلم مع النبى ﷺ تسعة وثلاثون رجلا وامرأة، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فنزل : ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبى ﷺ ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت ﴿ **يأيها النبى حسبك الله** ﴾(٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن الزهرى فى الآية قال : نزلت فى الأنصار . وأخرج البخارى فى تاريخه،وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى فى قوله: ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ قال : حسبك الله وحسب من اتبعك .

وأخرج البخارى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ فكتب عليهم ألا يفر واحد من العشرة ، وألا يفر عشرون من مائتين . ثم نزلت ﴿ **الآن خفف الله عنكم** ... ﴾ الآية ، فكتب ألا يفر مائة من مائتين . قال سفيان : وقال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل هذا (٣) ، وإن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثة فهو فى سعة من تركهم . وأخرج البخارى ، والنحاس فى ناسخه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف : ﴿ **الآن خفف الله عنكم** ... ﴾ الآية . قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (٤) .

﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩)** ﴾ .

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد . ومعنى : ﴿ **ما كان لنبى** ﴾ ما صح له وما استقام ، وقرأ أبو عمرو وسهيل ويعقوب ويزيد والمفضل أن تكون بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحتية ، وقرأ أيضا يزيد والمفضل : « أسارى » ، وقرأ الباقون : ﴿ **أسرى** ﴾ والأسرى : جمع أسير ، مثل : قتلى وقتيل ، وجرحى وجريح . وقال فى جمع أسير أيضا : أسارى بضم الهمزة وبفتحها ، وهو مأخوذ من الأسر ، وهو القد ؛ لأنهم كانوا يشدون به الأسير فسمى كل أخيذ

---

(١) الطبرانى (١٢٤٧٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣١ : « وفيه إسحاق بن بشر الكاهلى وهو كذاب » .

(٢) قال ابن كثير ٣ / ٣٤٤ : « وهذا فيه نظر ؛ لأن هذه الآية مدنية ، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة ، وقبل الهجرة إلى المدينة » .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٦٥٢) والبيهقى فى الشعب (٤٣١٠) ورجاله كلهم ثقات .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٦٥٣) والبيهقى ٩ / ٧٦ .

وإن لم يشد بالقيد : أسيرا . قال الأعشى :

وقيدنى الشعر فى بيته كما قيدت الأسرات الحمارا

وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون ، والأسارى : هم الموثقون ربطا . والإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ؛ تقول العرب : أثخن فلان هذا الأمر ، أى بالغ فيه . فالمعنى : ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يبالغ فى قتل الكافرين ويستكثر من ذلك . وقيل : معنى الإثخان : التمكن . وقيل : هو القوة . وأخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله فى ذلك فقال : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [محمد : ٤] كما يأتى فى سورة القتال إن شاء الله. قوله: ﴿**تريدون عرض**﴾ الحياة ﴿ **الدنيا** ﴾ أى نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء ، وسمى عرضا ؛ لأنه سريع الزوال ، كما تزول الأعراض التى هى مقابل الجواهر ﴿ **والله يريد الآخرة** ﴾ أى يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب فى الإثخان بالقتل . وقرئ: « يريد الآخرة » بالجر على تقدير مضاف وهو المذكور قبله ، أى والله يريد عرض الآخرة ﴿ **والله عزيز** ﴾ لا يغالب ﴿ **حكيم** ﴾ فى كل أفعاله .

قوله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ اختلف المفسرون فى هذا الكتاب الذى سبق ما هو ؟ على أقوال : الأول : ما سبق فى علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم . والثانى : أنه مغفرة الله لأهل بدر، ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ،كما فى الحديث الصحيح : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (١). القول الثالث : هو أنه لا يعذبهم ورسوله ﷺ فيهم كما قال سبحانه : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : ٣٣] . القول الرابع : أنه لا يعذب بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا . القول الخامس : أنه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر . القول السادس : أنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ، ولم يتقدم نهى عن ذلك . وذهب ابن جرير الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها ﴿ **لمسكم** ﴾ أى لحل بكم ﴿ **فيما أخذتم** ﴾ أى لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿ **عذاب عظيم** ﴾ والفاء فى : ﴿ **فكلوا مما غنمتم** ﴾ لترتيب ما بعدها على سبب محذوف ، أى قد أبحت لكم الغنائم ، فكلوا مما غنمتم ، ويجوز أن تكون عاطفة على مقدر محذوف ، أى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره . وقيل : إن: « ما » عبارة عن الفداء ، أى كلوا من الفداء الذى غنمتم فإنه من جملة الغنائم التى أحلها الله لكم ،و ﴿ **حلالا طيبا** ﴾ منتصبان على الحال أو صفة المصدر المحذوف ،أى أكلا حلالا طيبا ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فيما يستقبل فلا تقدموا على

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٩٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤ / ١٦١) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٥) وقال : « حسن صحيح » وكلهم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

شىء لم يأذن الله لكم به ﴿ **إن الله غفور** ﴾ لما فرط منكم ﴿**رحيم** ﴾ بكم،فلذلك رخص لكم فى أخذ الفداء فى مستقبل الزمان.

وقد أخرج أحمد عن أنس قال : استشار النبى ﷺ الناس فى الأسرى يوم بدر فقال : «إن الله قد أمكنكم منهم » ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يأيها الناس ، إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » ، فقام عمر فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله ، نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء . فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، فأنزل الله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق** ... ﴾ الآية [1] .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جىء بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك فاستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ،قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا، فقال العباس ــ وهو يسمع: قطعت رحمك ، فدخل النبى ﷺ عليهم ولم يرد عليهم شيئا، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال قوم: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ،فخرج رسول الله ﷺ فقال: « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ومثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ من تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ [إبراهيم: ٣٦] . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال :﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : ١١٨] . ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦].ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس: ٨٨]. أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، إلا سهيل ابن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ ، فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال

---

(١) أحمد ٣ / ٢٤٣ وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٩٠ : « رواه أحمد عن شيخه على بن عاصم بن صهيب وهو كثير الغلط والخطأ ، ولا يرجع إذا قيل له الصواب ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .

رسول الله ﷺ : «إلا سهيل ابن بيضاء»، فأنزل الله : ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى...** ﴾ الآية(١).

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن على قال : قال النبى ﷺ فى الأسرى يوم بدر : « إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتم واستمتعتم بالفداء ، واستشهد منكم بعدتهم ، فكان آخر السبعين ثابت بن قيس استشهد باليمامة » (٢) . وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه وابن أبى شيبة عن عبيدة نحوه (٣) . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر ، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » فقال له عمر: فآتيهم؟ قال: « نعم » فأتى عمر الأنصار فقال : أرسلوا العباس . فقالوا : لا و الله لا نرسله . فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضا ، قالوا : فإن كان لرسول الله ﷺ رضا فخذه، فأخذه عمر ، فلما صار فى يده قال له : يا عباس ، أسلم ، فوالله إن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك ، قال : فاستشار رسول الله أبا بكر، فقال أبو بكر : عشيرتك فأرسلهم ، فاستشار عمر، فقال : اقتلهم ، ففاداهم رسول الله ﷺ ، فأنزل الله: ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى** ... ﴾ الآية (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حتى يثخن فى الأرض** ﴾ يقول : حتى يظهروا على الأرض . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : الإثخان : هو القتل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد أيضا فى الآية قال : ثم نزلت الرخصة بعد: إن شئت فمن ،وإن شئت ففاد. وأخرج ابن المنذر عن قتادة :﴿ **تريدون عرض الدنيا** ﴾ قال : أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿ **تريدون عرض الدنيا** ﴾ قال: الخراج. وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق** ﴾ قال : سبق لهم المغفرة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : ما سبق لأهل بدر من السعادة . وأخرج النسائى وابن مردويه وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية (٥) . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سبق ألا يعذب

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٣٧) وأحمد ١ / ٣٨٣ والترمذى فى التفسير(٣٠٨٤) وقال: « حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه » والطبرانى (١٠٢٥٧، ١٠٢٥٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٦ / ٩٠ : « رواه الطبرانى أيضا وفيه أبو عبيدة لم يسمع من أبيه ، ولكن رجاله ثقات ، وفى رواية عند الطبرانى . . . وهى متصلة وفيها موسى بن مطير وهو ضعيف » وصححه الحاكم ٣ / ٢١ ، ٢٢ ووافقه الذهبى، والبيهقى فى الدلائل ٣ / ١٣٨ ، ١٣٩ وفى السنن ٦ / ٣٢١ .

(٢) صححه الحاكم ٢ / ١٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦ / ٣٢١ .

(٣) عبد الرزاق (٩٤٠٢) وابن أبى شيبة (١٨٥٣٣) .

(٤) صححه الحاكم ٢ / ٣٢٩ وقال الذهبى : « على شرط مسلم » .

(٥) النسائى فى التفسير (٢٣١) إسناده حسن تفرد به النسائى ورجاله ثقات غير على بن أبى طلحة الوالبى وثقه بعضهم وضعفه يعقوب بن سفيان؛ولذا قال عنه الحافظ :«صدوق قد يخطئ» فهو حسن الحديث إن شاء الله.

أحدا حتى يبين له ويتقدم إليه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ .

اختلاف القراء فى أسرى [١] والأسارى هو هنا كما سبق فى الآية قبل هذه . خاطب الله النبى ﷺ بهذا ، أى قل لهؤلاء الأسرى الذين هم فى أيديكم أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء : ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا** ﴾ من حسن إيمان ، وصلاح نية ، وخلوص طوية ﴿**يؤتكم خيرا مما أخذ منكم** ﴾ من الفداء ، أى يعوضكم فى هذه الدنيا رزقا خيرا منه وأنفع لكم، أو فى الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ذنوبكم ﴿**والله غفور رحيم** ﴾ شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم ، ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم فى قلبه خيرا ذكر من هو ضد ذلك منهم فقال : ﴿ **وإن يريدوا خيانتك** ﴾ بما قالوه لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة ، بل هو مماكرة ومخادعة ، فليس ذلك بمستبعد منهم، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه ، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تظفر بهم ، فكفروا به وقاتلوا رسوله ﴿ **فأمكن منهم** ﴾ بأن نصرك عليهم فى يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت ﴿ **والله عليم** ﴾ بما فى ضمائرهم ﴿ **حكيم** ﴾ فى أفعاله بهم .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص وبعثت فيه بقلادة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق رقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها » ، وقال العباس: إنى كنت مسلما يا رسول الله ، قال : « الله أعلم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فالله يجزيك ، فافد نفسك وابنى أخويك نوفل بن الحارث وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو » ، قال : ما ذاك عندى يا رسول الله ، قال : « فأين المال الذى دفنت أنت وأم الفضل؟ فقلت لها : إن أصبت فهذا المال لبنى ؟ » فقال : والله يا رسول الله، إن هذا لشىء ما علمه غيرى وغيرها ، فاحسب لى ما أصبتم منى عشرون أوقية من مال كان معى ، قال : « لا أفعل» ، ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، ونزلت : ﴿ **قل لمن فى أيديكم من الأسرى** ... ﴾ الآية ، فأعطانى مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله [٢] .

وأخرج ابن سعد ، والحاكم وصححه عن أبى موسى أن العلاء بن الحضرمى بعث إلى

---

(١) هكذا بالمخطوطة ، ولعله فى « الأسارى » فقط .

(٢) صححه الحاكم ٣/ ٢٣ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/ ٣٢٢ .

رسول الله ﷺ بمال من البحرين ثمانين ألفا ، فما أتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه ، فنثر على حصير ، وجاء الناس فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم ، وما كان يومئذ عدد ولا وزن ، فجاء العباس فقال : يا رسول الله ، إنى أعطيت فدائى وفداء عقيل يوم بدر ، أعطنى من هذا المال ، فقال : « خذ » فحثا فى خميصته ، ثم ذهب ينصرف فلم يستطع ، فرفع رأسه وقال : يا رسول الله ، ارفع علىّ ، فتبسم رسول الله ﷺ وذهب وهو يقول : أما أحد اللذين وعد الله فقد أنجزنا وما ندرى ما يصنع فى الأخرى ﴿ **قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم** ﴾ فهذا خير مما أخذ منى ولا أدرى ما يصنع فى المغفرة (١) . والروايات فى هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى الأسارى يوم بدر منهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبى طالب (٢) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **وإن يريدوا خيانتك** ﴾ إن كان قولهم كذبا ﴿ **فقد خانوا الله من قبل** ﴾ فقد كفروا وقاتلوك فأمكنك الله منهم.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)** ﴾.

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذى يستعين به ، وسمى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم ؛ لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلبا لما عند الله ، وإجابة لداعيه . ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ هم الأنصار ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى الموصول الأول والآخر ، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده ، ويجوز أن يكون ﴿**بعضهم**﴾ بدلا من اسم الإشارة ، والخبر ﴿ **أولياء بعض** ﴾ أى بعضهم أولياء بعض فى النصرة والمعونة . وقيل : المعنى : إن بعضهم أولياء بعض فى الميراث . وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ .

---

(١) ابن سعد ٤/ ١٥ ، ١٦ وصححه الحاكم ٣/ ٣٢٩ ، ٣٣٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .
(٢) ابن سعد ٤/ ١٥ .

قوله : ﴿ **والذين آمنوا** ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ **ما لكم من ولايتهم من شىء** ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة : ﴿ **من ولايتهم** ﴾ بكسر الواو . وقرأ الباقون بفتحها ، أى ما لكم من نصرتهم وإعانتهم ، أو من ميراثهم ، ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم ﴿ **حتى يهاجروا** ﴾ فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة ﴿ **وإن استنصروكم** ﴾ أى هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ﴿**فعليكم النصر** ﴾ أى فواجب عليكم النصر ﴿ **إلا** ﴾ أن يستنصروكم ﴿ **على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ فلا تنصروهم ولا تنقضوا العهد الذى بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضى مدته . قال الزجاج : ويجوز : فعليكم النصر بالنصب على الإغراء .

قوله : ﴿ **والذين كفروا** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى بعضهم ينصر بعضا ويتولاه فى أموره، أو يرثه إذا مات ، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم . قوله : ﴿ **إلا تفعلوه** ﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالاة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور ، وترك موالاة الكافرين ﴿ **تكن فتنة فى الأرض**﴾ أى تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك ﴿ **وفساد كبير** ﴾ أى مفسدة كبيرة فى الدين والدنيا ، ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الأنصار ، فقال : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقا** ﴾ أى الكاملون فى الإيمان ، وليس فى هذا تكرير لما قبله فإنه وارد فى الثناء على هؤلاء ، والأول وارد فى إيجاب الموالاة والنصرة ، ثم أخبر سبحانه أن ﴿ **لهم** ﴾ منه ﴿ **مغفرة** ﴾ لذنوبهم فى الآخرة و لهم فى الدنيا ﴿ **رزق كريم** ﴾ خالص عن الكدر طيب مستلذ . ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار فهو من جملتهم ، أى من جملة المهاجرين الأولين والأنصار فى استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم فى الميراث ، والمراد بهم : القرابات ، فيتناول كل قرابة . وقيل : المراد بهم هنا: العصبات ، قالوا : ومنه قول العرب : وصلتك رحم ، فإنهم لا يريدون قرابة الأم . قالوا : ومنه قول قتيلة :

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

ولا يخفاك أنه ليس فى هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصبات ، وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوى الأرحام ، وهم من ليس بعصبة ولا ذى سهم على حسب اصطلاح أهل علم المواريث ، والخلاف فى ذلك معروف مقرر فى مواطنه . وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالاة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله: ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ وما بعده بالتوارث ، وأما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية إخبارا منه سبحانه وتعالى بأن

القرابات ﴿ **بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ أى فى حكمه أو فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن ، ويدخل فى هذه الأولوية الميراث دخولا أوليا لوجود سببه ــ أعنى ــ القرابة : ﴿ **إن الله بكل شىء عليم** ﴾ لا يخفى عليه شىء من الأشياء كائنا ما كان ، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا...** ﴾ الآية قال : إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل ، منهم المؤمن المهاجر المباين لقومه ، وفى قوله : ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ قال : آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة وشهروا السيوف على من كذب وجحد، فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض ، وفى قوله : ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا** ﴾ قال : كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية فى الدين ، وكان الذى آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر ، فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم ، وهى الولاية التى قال : ﴿ **ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ كان حقا على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم فى الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبى ﷺ ميثاق ، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذى لا ميثاق لهم ، ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذى رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا** ﴾ فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيبا مفروضا لقوله: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ... ﴾ الآية . وفى رواية لابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ قال : يعنى فى الميراث ، جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء** ﴾ ما لكم من ميراثهم من شىء ﴿**حتى يهاجروا** [1] **وإن استنصروكم فى الدين** ﴾ يعنى : إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدو لهم فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ فنسخت الآية التى قبلها ، وصارت المواريث لذوى الأرحام .

وأخرج أبو عبيد وأبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآيات قال : كان المهاجر لا يتولى الأعرابى ولا يرثه وهو مؤمن ، ولا يرث الأعرابى المهاجر ، فنسختها هذه الآية: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ [2] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال : قال رجل من المسلمين : لنورثن ذوى القربى منا من المشركين ، فنزلت : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء**

(١) فى المطبوعة : « يهاجرون » .

(٢) أبو داود فى الفرائض (٢٩٢٤) .

بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير﴾(١) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «المهاجرون بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة ، والطلقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة » (٢) . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أسامة عن النبى ﷺ قال : «لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافرا ، ولا كافر مسلما » ثم قرأ : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ... ﴾ الآية (٣) .

وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله فينا خاصة معشر قريش : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم فآخونا ، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخى عمر فلانا ، وآخى عثمان بن عفان رجلا من بنى زريق بن أسعد الزرقى ، قال الزبير : وآخيت أنا كعب بن مالك ، ووارثونا ووارثناهم ، فلما كان يوم أحد قيل لى: قد قتل أخوك كعب بن مالك ، فجئته فانتقلته فوجدت السلاح قد ثقلته فيما يرى ، فوالله يا بنى لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى ، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار ، فرجعنا إلى مواريثنا (٤) . وأخرج أبو داود الطيالسى والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب (٥) .

---

(١) ابن جرير ١٠/ ٣٩ .

(٢) أحمد ٤/ ٣٦٣ ، وصححه الحاكم ٤/ ٨١ ووافقه الذهبى .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٢٤٠ ووافقه الذهبى .

(٤) صححه الحاكم ٤/ ٣٤٥ ووافقه الذهبى .

(٥) أبو داود الطيالسى (٢٦٧٦) والطبرانى (١١٧٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٣١ : « ورجاله رجال الصحيح».